الأخلاق
من منظور إسلامي

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد رشاد عبد العزيز دهمش

عميد كلية الدراسات الإسلامية

بدسوق سابقا

١٤١٩ هـ-١٩٩٨ م


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء و أمير المرسلين و على آله و صحبه و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

و بعد

فمنذ أن نضب معين الأخلاق العالية و المثل الفاضلة و السجايا الحميدة و الإنسانية تعانى من التشاحن و البغضاء و من الأنانية و الأثرة و من الشقاء و التعاسة و من سيطرة المادية البغيضة على عالمنا المعاصر حتى أصبحت حياة الإنسان قلقة مضطربة بعد أن كانت هادئة آمنة. و لقد شاركت التربية الغربية بأخلاقها المنحرفة بنصيب كبير فى ضياع القيم كما ساعدت التربية الشيوعية التى تنكرت لكل خلق قويم فى قتل كل فضيلة و نشر كل رذيلة حتى أصبحت الحياة مخضبة بدماء تسفك دون وجه حق و دون رعاية لحقوق جوار أو خوف من تأنيب ضمير و من هذا كان هذا الصراع الرهيب الذى نراه اليوم و التعطيل و بين الروح و المادة و بين الأمل و القنوط و بين الخير و الشر و بين الرجاء و اليأس. و هذا أيضا يدعونا إلى البحث عن بلسم شاف و علاج ناجح ينقذ الإنسانية من هذا الضلال و التية و لن يكون هذا إلا فى نشر القيم الخلقية و بسط الخلال الكريمة و دعم الفضائل السامية التى جاء بها الإسلام و نظم بها الحياة أحلك فترة من فترات للتأخر البشرى و الظلم الاجتماعى.

إن البشرية فى حاجة ماسة اليوم إلى التمسك بالأخلاق التى ترفع رايتها . القرآن و أعلى شأنها رسول الله صلى الله عليه و سلم ذلك أن المنهج

الأخلاقي الإسلامي هو المواتي لفطرة الإنسان فهو الذي يحفظ كرامته و يعلي من إنسانيته و يصوغ شخصيته صياغة متكاملة يجعل حياتها خير نموذج على الأرض كي تتحقق العدالة و يسود الحب و تنتشر الرحمة فلا غرور و لا شطط و لا أثرة و لا استئثار و لا ذل و لا خضوع و لا ظلم و لا طغيان . . . إنما تعاون و تراحم و تعاطف من أجل الخير و الزود عن المجتمع بل و للإنسانية جمعاء. (و تعاونوا على البر و التقوى و لا تعاونوا على الإثم و العدوان).

و لذا فقد أردت بهذا البحث في الأخلاق في محيط الإسلام أن أشارك بجهد المقل-في نشر القيم الخلقية كي ترجع البشرية الشاردة عن المنهج الخلقي إلى التمسك بالفضائل و إلى العودة إلى الحياة الرفيعة الكريمة التي تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للإنسان و التي تحققت في فترة من فترات التاريخ عندما كانت الأخلاق تتقدم عمل الإنسان نحو الخير و الصلاح و تأخذ بيده نحو السعادة و الفلاح. و سوف نتكلم عن الأخلاق في المذاهب البشرية ثم عن الأخلاق في الإسلام.

هذا و أسأل الله جل جلاله أن ينفع القارئ بهذا العمل و أن يكون خالصاً لوجهه الكريم و أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا و أن يوفقنا لخدمة الدين و الوطن و الإنسانية جمعاء. (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

هذا و بالله التوفيق

القاهرة في ١٤١٩ هـ
الموافق ١٩٩٨ م

دكتور
محمد رشاد دهمش

تمهيـــد

الإنسان حيوان أخلاقى

يظن بعض الباحثين أن الإنسان طالما يخضع-كالحيوان -لمنطق الحياة العضوية و ضرورات الغرائز الحيوانية فإنه لا يخرج من كونه (مخلوقا طبيعيا محضا أو موجوداً بيولوجياً صرفاً. و لكن هذا لا ينطبق إلا على ذلك الإنسان المادى أو المعتوة الابلة الذى لا يلمح لديه ما يتجاوز مطالب الجسد و حاجات الغريزة فهو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان.

أما ذلك الإنسان السوى الذى يحافظ على جانبه الروحى بجانب جانبه المادى فهو-على الرغم مما فيه من جانب حيوانى-موجود حضارى أو مخلوق ثقافى أولا و قبل كل شيء فلم يصل الموجود البشرى إلى مرحلة الإنسانية إلا بعد أن أنتقل من دور التاريخ الطبيعى إلى دور التاريخ الحضارى و ما نسميه بالتقدم الحضارى إنما هو أثر من أثار الإنسان و ما أبتدعه من وسائل مبتكرة لتنظيم حياته و السيطرة على الكون الذى يعيش فيه.

فلقد أبتدع الإنسان-أولا-اللغة لسد حاجته إلى التفاهم من أجل أداء بعض الأعمال المشتركة، ثم ترقت هذه الأداة الرمزية التى أصطنعها الموجود البشرى فأصبحت اللغة سجلا لتجارب الناس و لإنتاجهم الفكرى ثم سار الرقى قدما حتى تعقدت حياة البشر الاقتصادية و الاجتماعية فنشأت الحاجة إلى اختراع الآلات لإشباع مطالب الإنسان المادية.

إن أحد لا ينكر بطبيعة الحال أن لدى الإنسان حاجات عضوية يسعى دائما نحو إشباعها، مثله في ذلك كمثل غيره من بني الحيوان، و لكن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يمزج الواقع بالمثل الأعلى و يجمع بين الغريزة و الأخلاق. فالإنسان-بين كائنات الطبيعة جميعها-أقدرها على مراقبة دوافعه و العمل على فهمها أو إعلانها أو إبدالها. و معنى هذا أن الموجود البشري هو الكائن الوحيد الذي يمكنه أن يستبدل بالنظام الحيوي للحاجات نظاما أخلاقيا للقيم.

و حينما نقول أن الإنسان "حيوان أخلاقي" فإننا نعني بذلك أنه المخلوق الوحيد الذي لا يقنع دائما بما هو كائن، بل يحاول تجاوز الواقع من أجل الاتجاه نحو ما ينبغي أن يكون[1].

فالحياة الإنسانية الصحيحة إنما تتمثل بكل حدتها في شعور الموجود البشري بذلك التعارض القوي القائم بين "الكائن الواقعي" بنقصه و ضعفه "و الكائن المثالي" بكماله و سموه.

إن الإنسان يحاول-دائما-أن يكمل ذاته أو أنه يعلو على نفسه و لا يمكن أن يتناغم تماما مع البيئة و لا يستطيع مطلقا أن يركن إلى الواقع وحده بينما يقنع الحيوان بما تقدمه له البيئة أو ما يعرضه عليه الواقع. و من هنا نجد أن الإنسان يعرف "القيم" و يعمل من أجل "المثل العليا" و يظل في صراع دائم ضد الأكاذيب و الأضاليل و الخرافات و الأوهام و شتى أخطاء

---

[1] ص ٣٤ د. ذكريا إبراهيم، مبادئ الفلسفة و الأخلاق، عام ١٩٦٣.

الحس و العقل، أملا أن يصل يوما إلى الكشف عن ذلك النور الأسمى الذى يستطيع أن أن يسير على هديه فى طريق حياته. فليس فى استطاعتنا أن نشبه الوجود الإنسانى بالوجود الحيوانى اللهم إلا إذا استبعدنا نهائيا من دائرة الوجود الإنسانى كل ما يتصل بمسائل الأخلاق و القيم و المثل العليا و تنظيم السلوك و مراقبة الواقع و اصلاح الفرد و تربية النشء و تحقيق السعادة و السمو و الرفعة.

الإنسان سيد الكون

إن الإنسان حينما ينظر إلى ما حوله فإنه يجد نفسه بازاء عوالم ضخمة من الطاقات الهائلة و القوى اللا متناهية التى لابد من أن تروعه بضخامتها و عظمتها، و لكنه لن يجد صعوبة فى أن يحقق مع أنه مع ذلك سيد مصيره و على الرغم من ضآلة حظه من الطاقة. و لئن كان قد (أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)[٢] على حد تعبير القرآن الكريم-إلا أنه مع ذلك قد حمل أمانة المحافظة على القيم فأصبح-وحده بين موجودات الطبيعة جميعا-خليفة الله فى أرضه و سيد هذا الكون بأسره.

أليس الإنسان وحده بين مخلوقات الله، ربيب الفكر و حليف الأخلاق و خالق العلوم و الفنون و مخترع الآلات و مفجر الطاقة الذرية و مخترع حائط الصوت (و إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون).

---

[٢] سورة الإنسان/١.

حاجة الإنسان إلى خلق قويم

لقد أخذت الحياة فى التطور التدريجي خلال عشرات القرون حت اكتمل نموها و عظم بناؤها و اتخذت زينتها و نشأت بها مجتمعات و شعوب و دول تربطها علاقات و مصالح مشتركة و تدفعها إلى التعامل منافع متعددة و أهداف مختلفة.

و لما كان الناس مدنيون بطبعهم يميلون إلى الاجتماع ليتعاونوا فى تحقيق مطالب العيش و جلب المنافع و دفع المضار و التغلب على مخاطر الطبيعة و مطالب الحياة–و لما كان لكل إنسان مطالبه و له أهواؤه، و قد تتعارض هذه الأهواء و تتضارب هذه المطالب و ذلك لاختلاف العقول و الميول فيدفع الخلاف بين الناس و قد يؤدى هذا الخلاف إلى الحروب المفضية إلى الفوضى و الفناء و الفساد و الشقاء–.

لما كان الأمر كذلك فإن الإنسان فى حاجة إلى شىء يحتكم إليه إذا ما تصادمت الأهواء و تعارضت المصالح و لقد كان هذا الشىء هو الأخلاق و قيمها و مثلها التى كانت هى الفيصل فى ميدان التنازع و فى ساحة التشاحن فقد منح الله الإنسان نورا يميز به–إلى حد ما–بين الخير و الشر و يدرك به الحسن من القبيح و يعرف به الطيب من الخبيث، ذلك النور هو "العقل" الذى متى استرشد الإنسان به و حكمه فى أفعاله و سار على ضوء هداه بعيدا عن هواه فإنه يرتفع إلى ذروة الأخلاق الفاضلة و يبلغ أسمى الدرجات العالية.

و لقد تعارفت البشرية-خلال تاريخها الطويل-على كثير من القيم الأخلاقية التي كانت تسير على ضوئها و تحتكم إليها و تتمسك بها و تعمل على تنشئة الأبناء عليها و تجاهد من أجل الحفاظ على حمايتها و دعمها و نشرها في كل زمان و مكان و لقد حاول الإنسان أن تكون أعماله و أفعاله و أقواله وفق الخير الذي يبتغيه و أن يبتعد بقدر الطاقة عن الشر الذي يخاف منه و كلما أنحرف الإنسان عن طريق الخير كانت رحمة الله ترعاه فيرسل إليه الرسل و تأتي إليه الكتب لتحدد إليه طريقة الخير و الرشاد و توضيح إليه الطريق المستقيم الذي ينبغي ألا يحيد عنه (و أن هذا سراطي مستقيما فاتبعوه و لا تتبعوا السبيل فتفرق بكم عن سبيله).

و كانت وصايا الرسل لاتباعهم هي توحيد الله جل جلاله و عبادته و الإيمان به-و الإيمان هو أساس الأخلاق-و لقد وردت في القرآن الكريم إشارات إلى وصايا الرسل لأبنائهم و أتباعهم و ما علموهم من الإيمان بالله و توحيده و عبادته كوصية يعقوب لبنيه و توصية إبراهيم من قبله (و وصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما يعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك و إله آبائك إبراهيم و إسماعيل و إسحاق إله واحد و نحن له مسلمون)[٣].

كما وردت إشارات إلى تربية بعض الصالحين لأبنائهم كوصية لقمان لأبنه و هو يعظه (و إذ قال لقمان لابنه و هو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك

---

[٣] سورة البقرة/١٣٢-١٣٣.

لظلم عظيم)[4] و لا شك أن هذه الوصايا هي جماع الأخلاق الفاضلة (يا بنى أقم الصلاة و أمر بالمعروف و انه عن المنكر و اصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. و لا تصعر خدك للناس و لا تمشى فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. و اقصد فى مشيك و اغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)[5].

و لقد أنتفع الإنسان بهذه الوصايا الراشدة و اندفع إلى منابع الثقافة و المعرفة يرتشق منها و يتفاعل معها فابتكر علم الطبيعة ليبحث فى مظاهر الكون من حرارة و برودة و انكماش، و علم الكيمياء ليبحث فى حقائق المواد و خواصها و علم الجغرافيا ليبحث و يدرس عالمه من ناحية الطبيعة و السياحة و علم الفلسفة ليقف على ما هية الأشياء و يدرك كافة الحقائق كذلك ابتكر علم الأخلاق ليحدد مكانه من طريق الهدى أو طريق الضلال، و لقد كان الإنسان دائما إلى خالقه أقرب فإن النفس تحن دائما إلى خالقها و كذلك فقد كان لعلم الأخلاق تلك المكانة العالية و الدرجة السامية فإن التحلى بالفضائل أفضل شيء يتحلى به الإنسان فى دنيا الناس.

---

[4] سورة لقمان آية ١٣ .

[5] سورة لقمان آية ١٧ حتى الآية ١٩ .

تعريف علم الأخلاق

يتميز كل علم بتعريف خاص به يمنع من دخول علم آخر في مسائله و قضاياه و علم الأخلاق كسائر العلوم له تعريفه الذى يميزه عن غيره رغم اختلاف الآراء في هذا التعريف تبعا في اختلاف وجهات النظر في هذا العلم و إليكم بعض هذه التعريفات:

في اللغة

الأخلاق جمع خلق و معناها الطبع و السجية و العادة، يقول ابن منظور صاحب لسان العرب:

و اشتقاق خليق و ما أخلقه من الخلاقة و هي التمرين. من ذلك نقول لمن ألف شيء و اعتاد عليه-أصبح ذلك خلقا له بمعنى أنه مرت عليه و من ذلك الخلق الحسن.

التعريف في الاصطلاح

اختلفت نظرة الباحثين في علم الأخلاق فجاءت تعريفاتهم مختلفة تبعا لذلك كما قلنا سابقا.

أولا: عرف بعض الباحثين علم الأخلاق بأنه ذلك الفرع الفلسفي الذى يهتم بشخصية الإنسان و سلوكه لأنه يبحث في الأعمال التي تصدر عن الإنسان و يصدر الأحكام عن هذه الأفعال و يرسم طريق الرشاد للإنسان و على هذا التعريف فعلم الأخلاق قد يهتم بالفرد لا بالمجتمع.

ثانيا: علم الأخلاق هو علم بأصول يعرف به علم النفس من حيث ماهيتها و طبيعتها و علة وجودها و عن سجاياها و أميالها و ما ينقلها بسبب التعاليم عن الحالة الفطرية[٦].

ثالثا: ذهب فريق آخر من الباحثين إلى علم الأخلاق هو (علم الخير و الشر) فهو-في نظرهم-علم يبحث في الخير و الشر و أن الإنسان عن طريق معرفة هذا العلم يستطيع أن يحدد سلوكه في طريق يعرف ما هو و أين يصل به.

رابعا: ذهب فريق آخر إلى أن الأخلاق هو (علم الواجب و الواجبات و هذان التعريفان وإن كانا صحيحين إلا انهما لا يوفيان إلا بالناحية النظرية لهذا العلم. ذلك لأن مجرد تحصيل قواعد العلم لا يجعل الإنسان ذا أخلاق حسنه، فلو علم الإنسان الخير و الشر و أدرك-الواجبات دون أن يكون لهذه المعرفة اثر في سلوكه لا يسمى متخلفا لأن التخلف تلبس بالفعل بالأخلاق الفاضلة لا مجرد الدراسات النظرية.

خامسا: لقد جاء في دائرة المعارف للبستاني هذا التعريف الذي يراه كثير من الباحثين التعريف الأمثل يقول التعريف عن علم الأخلاق (علم بالفضائل و كيفية اقتنائها ليتحلى الإنسان بها و بالرذائل و كيفية توقيتها ليتخلى عنها).

سادسا: و أخيرا فإن هذا العلم يراه عدد كبير من الباحثين (يبحث عن المبادئ وترتيبها و استنباطها و تبين حقيقتها و أهميتها العلمية كما

---

[٦] مقدمة كتاب تهذيب الأخلاق في التربية لابن مسكويه-دار الكتب العلمية بيروت طبيعة أولى ١٩٨١ م .

يبين الواجبات التى توجبها تلك المبادئ على الإنسان بجميع نتائجها المترتبة عليها) و يتطلب ذلك بالضرورة أن يعالج الإنسان كمصدر لأفعاله و سلوكه و ليس كموضوع للمعرفة فحسب، و لا شك أن هذا يبين الصلة بين هذا العلم و بين علم النفس الذى يوضح كيفية التطور للتدرج لعقل الفرد، و يبحث تطور العادات الإنسانية و القوانين و النظم كما يكشفها الأن علم الاجتماع.

فائدة علم الأخلاق

لا شك أن لكل علم من العلوم فوائد جمة فى المجالات التى يبحث فيها هذا العلم. فهو يمدنا بالنظريات و القواعد التى تجعل المعرفة واضحة كى تقف على أهدافه التى تفيدنا فى حياتنا و تحفظ علينا سعادتنا فعلم الطب مثلا يبين لنا الأمراض المختلفة و طرق علاجها و سبل الوقاية منها و كيفية توقى العدوى من هذه الأمراض و يشرح لنا القواعد الصحية السليمة التى تجعلنا فى صحة و عافية و قوة. و لكن هذا لا يعنى أن علم الطب يضمن لنا الصحة و يجعلنا دائما فى أمان من الأمراض و شرورها.

و كذلك علم الأخلاق فإنه يبين لنا الفضائل المختلفة و يشرح لنا فوائدها الجمة و كيف أن المتصف بهذه الفضائل يكون أقرب إلى الله و يحيى حياة سعيدة. يحبه الناس و يرفعوه-بينهم-مكانا عليا و لكن علم الأخلاق مع هذا لا يمكن أن يجعل الإنسان صالحا خيرا اللهم إلا كان هذا الإنسان ميالا إلى الخير بطبعه لديه سجية طيبة تتقبل أوامر علم الأخلاق و ما يدعو

إليه من الفضائل و التمسك بها و العمل تحت ظلالها بل و يعمل على نشر هذه الفضائل ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

فعلم الأخلاق مثله كالطبيب الحازم الذى يبين للناس الأخطار الناجمة من شرب المسكرات و تناول المخدرات و يصف لهم أضرارها و يبين تأثيرها الخطير على الجسم و العقل معا. و الإنسان له بعد ذلك أن يختار طريقه. إما أن يقدم على هذه المهلكات و إما أن ينجو بنفسه من دمارها و الطبيب لا يملك أن يمنعه إذا ما أراد الردى لنفسه.

كذلك علم الأخلاق لا يستطيع أن يجعل الإنسان صالحا فليس له قوة قهر أو سلطة جبر و إنما يرشد الناس إلى طريق الخير و يحذر الناس من الوقوع فى الشر و يمد دارسه بالقدرة على نقد الأعمال التى يأتيها الناس و تقويمها مستقلا و غير خاضع فى أحكامه إلى عرف الناس و تقاليدهم و ما ألفوه أو نشأوا عليه، بل إن الحكم الذى يصدره الإنسان يكون وفق النظريات التى ينادى نها علم الأخلاق و قواعده. و أخيرا ينبغى أن نعرف أن أهداف علم الأخلاق ليست قاصرة على تحديد الفضائل و الرذائل و توضيح الخير و الشر، بل إن من أغراضه الهامة التأثير بقوة فى إرادتنا و هدفنا و حثنا على أن نشكل حياتنا و نصيغ أعمالنا حتى يتحقق المثل الأعلى للحياة و يتحقق خيرنا و كمالنا و منفعة الناس و خيرهم فهو يدفع إرادة الإنسان و يشعها على عمل الخير.

إن أثر علم الأخلاق يكون قويا إذا طاوعته طبيعة خيرة و فطرة سليمة، إن مجرد قراءة كتب الأخلاق لا تجعل من القارئ رجلا خيرا أو إنسانا صالحا

تماما كالذى يقرأ ألف كتاب فى العوم لا يصبح بمجرد قراءتها سباحا ماهرا بل لا بد من العوم و التدريب المتواصل حتى يتحقق له ما يريد، و إذا كان الأمر كذلك فلا يكفى أبدا أن تحفظ ألف كتاب و كتاب فى علم الأخلاق لتكون على خلق عظيم بل لا بد مع ذلك من رياضة نفسك على الفضيلة حتى تكون لها صديقا و بعهدها وفيا، فالفضيلة السليمة محلها النفس التى تصدر عنها الأفعال لا الفم التى تصدر منه الأقوال، و فى هذا المعنى يقول ارسطو:

فى الشئون العلمية ليس الغرض الحقيقى هو العلم نظريا بالقواعد بل هو تطبيقها ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن نعلم ما هى، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها أو استعمالها، لو كانت الخطب و الكتب وحدها قادرة على أن تجعلنا أخيارا لاستحق أن يطلبها كل الناس و أن تشترى بأغلى الأثمان، و لكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادئ أن تفعله فى هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات فى الخير، و تجعل القلب الشريف بالفطرة صديقا للفضيلة وفيا بعهدها.

إن فائدة علم الأخلاق عظيمة و منزليه جليلة و لذا فقد كان أرسطو فيلسوف اليونان الشهير بعلم الاسكندر هذا العلم مدروسا فى التقاليد الاجتماعية و فى الطبع الإنسانى.

موضوع علم الأخلاق

إن موضوع هذا العلم هو الأعمال التي يقوم بها الإنسان من حيث صلاحيتها للحكم عليها بالخير أو الشر.

و من المعروف أن الإنسان العاقل الراشد يقوم بأعمال و هو مدرك لنتائجها و مقدماتها مع شعوره بحريته الكاملة و إرادته المطلقة و بدون إكراه من أحد أو إرهاب و ذلك كالطالب الذى يقضى كل وقته فى قراءة القرآن الكريم أو فى العكوف على درسه أو كالطالب الذى لا يقدر قيمة الوقت و يجعل حياته فوضى فيهمل درسه و يترك عمله و يعبث بالقيم و يؤذى غيره و يسبب آلاما لأهله. فكل منهما مسئول عما قام به و قدمت يداه.

الطالب الأول مسئول عن نجاحه و تفوقه و حب الناس له و عمل هذا خير و هو خير لا شك فى هذا و الطالب الثانى مسئول كذلك عما قام به و على ما قدمت يداه شر و هو شرير لا شك فى هذا أيضا و هذا الوصف الذى لحق كل منهما جاء نتيجة لما صدر عنهما بإرادة و حرية كاملة.

كذلك فإن الإنسان قد يعمل و يدرك مقدماته و لكنه لا يدرك نتائجه و هذا ما نسميه العمل شبه الإرادى و هذا أيضا يدخل تحت موضوع علم الأخلاق لأن نتائجه و إن لم تكن مرادة أو مقصودة إلا أن مقدماته كان مختارا فى عملها كامل الحرية فى القيام بها. و ذلك مثل من حفر بئرا فى طريق علم كى ينتفع به فى أعماله فوقع فى هذا البئر إنسان أو حيوان محترم فمات، هذا الفعل يدخل تحت موضوع علم الأخلاق، لأن موت

هذا الإنسان أو الحيوان-و إن لم يكن مرادا لحافر البئر-لكنه لما كانت المقدمات و هي حفر البئر مراد له و يعلم خطورة هذا البئر و لم يضع علامة حمراء كي يحتاط الناس فإنه مسئول عن عمله هذا و يؤخذ به.

و على ذلك فإن علم الأخلاق يشمل أعمال الإنسان الإرادية و شبه الإرادية و لا تدخل الأعمال غير الإرادية تحت طائلته و ذلك لأن الإنسان لا دخل له في هذه الأعمال و لا يستطيع إيقافها و ذلك مثل دقات القلب و حركة المعدة و ما شابه ذلك. و من هنا نعرف أن ما تحكم به بعض الدول المتقدمة على الناس من اللون أو الجنس ليس حكما أخلاقيا لإنتفاء الإرادة لهم في ذلك. و لقد صدق القرآن الكريم عندما قرر هذه القاعدة الأخلاقية التي لم تجعل التفاضل خاضعا لما لا إرادة للإنسان فيه من جنس أو لون أو جاه أو مال، بل لما له فيه كسب و ذلك ما ترشد إليه الآية الكريمة: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

أقسام علم الأخلاق

إن العلم أي علم يكون نظريا إذ كان لا يعني إلا بتحصيل المسائل و معرفتها فقط دون الاهتمام بالجانب التطبيقي.

و يقال عن العلم أنه تطبيقي إذا جعل الناحية العلمية غاية له و ذلك بعد تحصيل القواعد أو المبادئ التي ينبغي أن تتبع عبد التطبيق فهو نظري و عملي في وقت واحد.

و غالب العلوم الإنسانية المعيارية من هذا القبيل فعلم المنطق مثلا و علم الأخلاق و هو أحد العلوم المعيارية ينقسم إلى قسمين:

١-نظرى و يسمى بالأخلاق النظرية.

٢-عملى و يسمى بالأخلاق العملية.

إن علم الأخلاق علم نظرى حين يحدثك مثلا عن الضمير و عن حقيقته و مظاهره من عواطف مختلفة كالرضا و السرور و البهجة الداخلية إذا ما فعل الإنسان الخير، و عن الألم و التأنيب إذا اقترف الإنسان شرا.

و إنه علم عملى حين يطلب منك أن تضبط سلوكك على مقتضى قواعده و مقاييسه و فى هذا القسم يدرك علم الأخلاق الواجبات المختلفة مثل واجب الإنسان نحو دينه و وطنه و خالقه جل جلاله، إن هذا الجانب من علم الأخلاق يتعرض لمباحث القسم الأول بالتطبيق على ظروف الحياة العملية المختلفة ليقول فيها كلمة الأخلاق بما يتفق و المقاييس الأخلاقية المتواضع على تحكيمها فى الحياة العملية[٧] و القسم العملى هو أهم أقسام علم الأخلاق، ذلك أننا لو نظرنا إلى الحياة العملية فى واقع الناس لوجدنا أن المرء يتعرض فى كل لحظة من هذه الحياة إلى مواقف يحتاج فيها أن يتصرف تصرفا معينا، هذا التصرف لا يتم بطريقة تلقائية أو ميكانيكية و إنما يتم بعد تفكر و تدبر فيما يصح و ينبغى و فيما لا يقبل و لا يليق، فيما يفيد و فيما يضر إلى غير ذلك من هذه المتقابلات، ثم بعد ذلك تتم عنده عمليات نفسية متتابعة قد تطول أو تقصر يتم بعد ذلك التصرف المطلوب سواء أكان صوابا أو خطا، حسنا أو قبيحا ذلك لأن الموقف لابد أن يجد جوابه من

---

[٧] أنظر مباحث فى فلسفة الأخلاق ص ٢ د. محمد يوسف موسى.

تصرف الإنسان تلك هى الضرورة العملية و فى هذه العمليات النفسية التى يستعد بها المرء لمواجهة هذه المواقف تلك الناحية الأخلاقية عنصرا أساسيا من عناصر الحكم و التوجيه و من مثل هذه المواقف ستكون لدى الإنسان قواعد معينة فى السلوك يمكن أن يستفيد منها فى المواقف الأخرى المشابهة بحيث تصبح هذه القواعد آدابا أو ملكات ثابتة تدفع المرء على التصرف بمقتضاها فى يسر و سهولة.

و العلم الذى يبحث فى هذه القواعد و هذه الملكات من حيث كونها خيرا أو شرا و من حيث كونها فضيلة أو رذيلة هو علم الأخلاق العملى. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز و هذا النوع فى الحقيقة هو أمس الضربين بالحياة و أحقها بأن يكون نبراسا فى كل يد فهو الغذاء اليومى بل هو الواجب العينى، و لذلك لا تكاد تخلو أمة من القديم و الحديث من معرفته و الحث على آدابه التى نصل إليها بالفطرة أو بالفكر أو بالتجربة أو بالوارثة و الرواية[8].

إن علم الأخلاق النظرى الذى يبحث فى الدوافع و البواعث و الحق و الواجب و الغايات و الأهداف البعيدة و القريبة و هو ما يسمى بفلسفة الأخلاق و هو من علم الأخلاق بمنزلة أصول الفقه من الفقه فهو شأن الخواص و المجتهدين و لا يطلب من غيرهم إلا كما تطلب النافلة بعد تمام الفريضة و لذلك لا نجد له من الأقدمية و من الشمول ما لعلم الأخلاق العملى و ينبغى أن يعرف بأن تسمية علم الأخلاق العملى ليس باعتباره

---

[8] كلمات فى مبادئ علم الأخلاق ص ١٦-١٧، دكتور دراز.

عملا و لكن باعتبار نسبته إلى موضوع بحثه و إلا فكلا العلمين بحث نظرى لكن أحدهما ينظر فى الأعمال الجزيئية و الملكات الأخلاقية التى تصدر عنها هذه الأعمال و الأخر ينظر فى المبادئ الكلية المطلقة بما فى ذلك معنى العمل على إطلاقه غير مقيد بعمل معين أو عمل خاص، من أجل ذلك يفرق بينهما يتميز الأول بنسبته إلى موضوعه و هو العمل و الثانى بنسبته إلى أساس العلم مطلقا و هو النظر، و فى هذا يقول الدكتور/ محمد عبد الله دراز: و معنى كون فلسفة الأخلاق فلسفة عملية أنها تتعلق بالعمل لأنها من نوع العمل، فإن الفلسفة كلها بحوث نظرية، و إن اختلفت مادتها و موضوعها، فإن هى تعلقت بالحق الذى يفتقد كانت نظرية فى أدائها و فى موضوعها معا، و إذا تعلقت بالخير الذى يفعل كانت نظرية فى أدائها عنلية فى موضوعها.

(بل علم الأخلاق العملى بنفسه هو أيضا من قبيل النظر لا العمل و إن كان العمل مادته كما هو مادة العلم النظرى ضع هذا الفارق الوحيد بينهما و هو أن العمل الذى هو موضوع العلم العملى أنواع من الأفعال لها مثال فى الخرج كالصدق و العدل و نحوهما، بينما موضوع العلم النظرى هو جنس العمل المطلق و فكرته المجردة التى لا يتحقق مسماها خارجيا إلا فى ضمن الأنواع التى يبحث عنها العلم العملى، تلك الأنواع التى تقدمت قبيل المسائل لتحقيق الخير المطلق، أو الفضيلة الكلية التى يبحث عنها العلم النظرى)[٩] .

---

[٩] المرجع السابق ص ١٧-١٨ و أنظر ص ٦٠ من فى التصوف و الأخلاق، د. بركة.

صلة الأخلاق بالفلسفة

من المسلم به عند كثير من الباحثين أن الفلسفة-"على معنى محاولة تفسير هذا الكون"-قد ولدت على أيدى اليونان فى آسيا الصغرى قبل الميلاد بستة أو سبعة قرون حتى لقبت بـ (أم الفلسفة أو وطن الحكمة)[١٠].

و الفلسفة كانت تعني عند اليونان الأوائل-فيما يبدو-كل معرفة محضة و لم تكن تشير إلىمفهوم خاص بل كانت تشير إلى حب الاستطلاع عامة و بالتالى فإنها كانت تعني كل جهد يقوم به العقل فى سبيل تزويد صاحبه بالمعارف الحديثة و بهذا كانت الفلسفة مرادفة للعلم.

و إذا كان الفلاسفة الطبيعيون لم يفهموا من الفلسفة إلا أنها بحث عن العناصر و لم تكن دراستها تتجاوز "نشأة الكون" فإن السوفسطائين جعلوا الفلسفة ضربا من التلاعب اللفظى يعين صاحبه على تأييد القول الواحد و نقيضه على السواء حتى جاء سقراط فوجه الفلسفة وجهة جديدة تدرس الأخلاق و السياسة[١١] فانحصرت الفلسفة عنده فى دائرة الأخلاق باعتبارها أسمى ما يهم الإنسان، و من هنا فإننا نفهم قول شيشرون الفيلسوف الرومانى[١٢] إن سقراط قد استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض أى أنه

---

[١٠] مقدمة الكون و الفساد ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد و قصته الفلسفية اليونانية لأحمد أمين و ذكى محفوظ.

[١١] ص ١٢ من كتاب (مع مسيرة الفكر الإنسانى فى العصر القديم)، د. محمد رشاد.

[١٢] ولد فى سنة ١٠٦ ق.م و توفى فى سنة ٤٣ ق.م و له مذهب فى الفلسفة يقوم على تحمل الألم.

حول النظر من الفلك و العناصر إلى النفس البشرية و بدأت اهتمامات الفلاسفة بعد ذلك بالأخلاق حتى وجدت الفلسفة الرواقية و الابيقورية تحصر الفلسفة في الأخلاق فقط و لقد اتخذت الفلسفة لنفسها-بعد فترة من الزمن-المباحث التالية:

١- مباحث ما بعد الطبيعة.

٢- الفلسفة الطبيعية.

٣- الفلسفة الإنسانية و هذه تشمل:

١-علم النفس. ٢-علم المنطق. ٣-علم الأخلاق.

٤-علم الجمال. ٥-فلسفة القانون. ٦-علم التاريخ.

٧-علم الاجتماع.

ذلك أن البحث في الإنسان من ناحية ما هو عليه فذلك علم النفس، و من ناحية عصمة ذهنه عن الخطأ في التفكير يأتي علم المنطق، و من ناحية ما يجب أن يكون عليه الإنسان يكون علم الأخلاق، و من ناحية الشعور الذى ينبعث عن الشيء الجميل يأتى علم الجمال، و من ناحية تنظيم السلوك ببيان ما يجب و ما لا يجب و التفريق بين أنواع القوانين المختلفة تأتى فلسفة القانون، و من ناحية المسائل التى تدور حول البحث فى علاقة الأشخاص بعضهم مع بعض يأتى علم الاجتماع و كذلك فلسفة التاريخ.

و على ذلك تكون صلة علم الأخلاق بالفلسفة هى صلة الجزء من الكل فعلم الأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية و الفلسفة الإنسانية جزء من الفلسفة

العامة[13]. و يعتبر (السهروردى)[14] أيضا علم الأخلاق قسما من الفلسفة العملية حيث يقول (و أما الحكمة العملية و أقسامها فهو أن التدابير البشرية و السياسية لا تخلو إما أن تختص بشخص واحد فقط أو لا و الأول هى التى بها يعرف كيف يكون الإنسان فى حركاته و سكناته و هى التى تكون معيشته الدنيوية و حياته الأخروية كاملة و يسمى هذا التعبير من الحكمة على الأخلاق.

صلة علم الأخلاق بعلم النفس

من المعروف أن علم النفس يبحث عن جميع القوى التى تلعب أهم الأدوار فى السلوك الإنسانى فهو يبحث مثلا عن الضمير، و الإرادة، و الذاكرة، و المحافظة و الإدراك و الوهم و التأويل و الفهم إلى غير ذلك مما فى الإنسان من احساسات و عواطف و انفعالات و كل هذه أعمال نفسية، أو عقلية تحرك الإنسان لأن يقول أو يعمل على مسرح هذه الحياة، و لما كان علم الأخلاق يتخذ لنفسه موضوعات هو أفعال الإنسان العاقل الحر المختار-كما عرفت فى موضوعه سابقا-ما كان لنا أن نحكم على إنسان حكما أخلاقيا من قبل أن ندخل هذه الأشياء فى اعتبارنا. و إلا كان ذلك منا تحكما لا يقبله عقل، فعلم النفس إذا مقدمة ضرورية لا بد منها لدارس علم الأخلاق، و لذلك نرى من ألفوا فى الأخلاق يقدمون لذلك بالكلام فى النفس فترى الإمام الغزالى مثلا يؤلف كتابة (معارج القدس فى مدارج

---

[13] أنظر ص ٤٦ من تأملات فى فلسفة الأخلاق للأستاذ أبى بكر ذكى الطبعة الثانية.

[14] فى كتاب المسمى "الرسائل الخمس" أنظر مقدمة تهذيب الأخلاق لمسكويه الطبعة الأولى ١٩٨١ دار الكتب العلمية-بيروت.

معرفة النفس) يقدمه لطلاب الأخلاق، و ترى كذلك أرسطو من قبل الغزالي يؤلف كتاب النفس و هو كتاب نقله إلى العربية إسحاق بن حنين، و الشيخ الرئيس ابن سينا فى رسالته "تقسيم الحكمة" يعد العلم بالنفس الإنسانية من الفلسفة النظرية و الأخلاق كما تقدم منها قسم نظرى و قسم عملى، على أنه إذا كانت قوانين الأخلاق قد وضعت ليكيف الإنسان سلوكه على مقتضاها فكيف يتم ذلك من غير أن يعرف الإنسان نفسه و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب و صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ يقول (إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه).

و مع هذا فإننا نرى (كنت) و هو أكبر أخلاقى فى الأزمان الأخيرة يرفض أن يعتمد علم الأخلاق على علم النفس، و حجته فى ذلك أن علم النفس علم يعتمد على التجربة، و التجربة تثبت اليوم ما قد تنفيه غدا، و مبادئ الأخلاق ثابتة صالحة لكل زمان و مكان، فهى لا تتغير كما هو الحال فى مثل العلوم التجريبية. و إن كان (كنت) يرفض أن يعتمد علم الأخلاق على علم النفس التجريبى أو العلمى فإنه -لا هو و لا غيره- يستطيع أن يرفض الصلة بين علم الأخلاق و علم النفس الفلسفى، ذلك الذى يدرس الأسس المنطقية التى يعتمد عليها علم النفس التجريبى.

إن علم النفس التجريبى يقصد إلى الوصول إلى مقياس خارجى تقاس به الظواهر النفسية، أما قياس هذه الظواهر النفسية، ثم معنى طرق التحليل و التركيب فيها فذلك وظيفة علم النفس الفلسفى. و معنى أن علم النفس الفلسفى يبحث فى الفروض و المبادئ التى يستند إليها علم النفس العلمى.

و على ذلك فإن علم النفس يلتقى بعلم الأخلق من ناحية أن كلا منهما يبحث الإنسان من ناحيته الفلسفية. و علم الأخلاق من ناحية ما يجب أن يكون عليه الإنسان، و علم النفس من ناحية ما هو عليه بالفعل.

ارتباط علم الاجتماع بالأخلاق

إن علم الأخلاق الوضعى هو الذى يتناول الظواهر الخلقية فى المجتمع دراسة علمية وصفية تحليلية، و ذلك فى ضوء المنهاج الاجتماعى، و يدخل فى نطاق هذه الدراسة الوصفية الوقوف على طبائع الشعوب و مظاهر الخلق القومى و الأذواق و التيارات الأخلاقية التى تسود بيئة محددة، و لا ريب أن كل دراسة اجتماعية ميدانية ينبغى لها أن تعرض بالأساليب العلمية انعكاسات هذه الأمور على المجتمع، كذلك فإن علم الأخلاق يوجه الفرد-و هو أساس المجتمع الذى يعمل فى ظواهره علم الاجتماع-نحو الخير و الفضيلة كى يصبح مجتمعا قويا تسوده المحبة و العدالة-فالعدالة-عند مفكرى اليونان هى الفضيلة الكبرى و الخير الأسمى.

التصوف و علم الأخلاق

جرت العادة أن تتم دراسة العلوم الأخلاقية فى ظل الفلسفة و تحت لوائها كما جرت العادة كذلك على جعل التصرف مسألة عملية خاصة و تجربة فردية خاصة و إن أظلتها الجماعة فى طريقة معينة.

و أصبح العرف العلمي العام يعتمد على هذا المعنى حين يريد أن يبحث في مسائل علم الأخلاق و أن يبحث عنها في محيط الفلسفة باعتبار أن الأخلاق قسم منها قبل أن يفكر في مجال التصوف.

و إذا كان التصوف سلوكا و عملا يمارسه المتصوف في خاصة نفسه، فإن التصوف و شأنه شأن كل جانب من جوانب المعرفة، قد أصبح له علمه الخاص به الذي يبحث في قواعده و أصوله و يبحث في مسائله و فروعه و يبحث في غاياته و وسائله.

و إذا نظرنا إلى تعريفات التصوف كعلم نجد أن التصوف في جوهره عملية أخلاقية و أنه في كل جوانبه يصطبغ بالصبغة الأخلاقية، فالأخلاق عنصر أساسي لا بد أن يشترك مع كافة العناصر الصوفية حتى يمكن أن تتكون منها حقيقة التصوف فإذا خلا وقت من أوقات الصوفي من هذا العنصر الأخلاقي كان ذلك ضعفا في سلوكه و خروجا من مقتضى الطريق الصوفي الذي يلزمه، و هذه الأخلاق ليست عملا ظاهريا فحسب تتزين به الجوارح و تتصور فيه الأعمال و لكنه مسألة قلبية تظهر آثارها على الجوارح و الأعمال و هذا سبب صعوبتها و مشقتها و الداعي لاستمرار اليقظة و الجهد في معالجتها.

و ليس بعسير أن نفهم –إذن– لماذا يقتصر كثير من الصوفية على تعريف التصوف بأنه خلق مكتفي بذلك عن ذكر بقية العناصر الأخرى التي تدخل

فى حقيقة التصوف[15]، يقول أبو الحسن النورى: ليس التصوف رسما و لا علما و لكنه خلق، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة و لو كان علما لحصل بالتعلم و لكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن نقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم[16]. و يقول أبو محمد الحريرى و قد سئل عن التصوف: إنه الدخول فى كل خلق سنى و الخروج من كل خلق دنى[17]. كما يقول أبو بكر الكنانى: التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء[18].

نخلص من هذا كله إلى أن علم الأخلاق له صلة وثيقة بعلم التصوف فهو أساس من أسس بنائه الشامخ، ذلك أننا لو نظرنا إلى الأخلاق و كيف عالجها الصوفية فإننا قد نشعر فى البداية أن التصوف-كما هو فى حد ذاته-عبارة عن سلوك و ممارسة للعمل و أنه إذا كان لعلم الأخلاق فيه مكانة، فلعله أن يكون فى علم الأخلاق العملى دون النظرى لأنه أكثر اتصالا بالأعمال الجزئية و الأحكام الخلقية الفرعية مما لا بد منه لكل سالك و مريد و لكنن إذا أمعنا النظر فسوف نجد أن التصوف لا يتعلق بعلم الأخلاق العملى فحسب-كما كان قد يتبادر إلى الفهم من اعتبار التصوف سلوكا و عملا-بل سوف نجد لديهم دراسات عن المبادئ الكلية و الأسس

---

[15] ص ٥٥-٥٦ من كتاب التصوف و الأخلاق، دكتور/ عبد الفتاح بركة-الطبعة الأولى ١٩٨٠-دار الطباعة المحمدية.

[16] كتاب اللمع للطوسى جـ ٤٥ .

[17] الرسالة العشيرية ص ٥٥٤.

[18] المصدر السابق.

العامة التى يعتبر أساسا لعلم الأخلاق النظرى من ذلك يحثهم عن الحقيقة و يحثهم عن القلب و الفؤاد و عن النفس و الهوى و غير ذلك من المسائل العامة[19].

[19] التصوف و الأخلاق ص ٦٤ بتصرف الدكتور/بركة.

الخلق

تعريف الخلق

إن التتبع لأقوال العلماء و تعريفاتهم للخلق يجد كثرة من التعريفات التي تدور بين الإيجاز و الإطناب أو الإجمال و التفصيل. فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الخلق هو تغلب ميل من الميول على غيره باستمرار. و عرفه آخرون بأنه (عادة الإرادة) بينما يذهب محيي الدين بن العربي في رسالته المعروفة بـ (تهذيب الأخلاق) في تعريف الخلق فيقول: إن الخلق هو حال للنفس بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية و لا اختيار ثم يقول: و الخلق قد يكون في بعض الناس غريزة و طبعا، و في بعضهم لا يكون إلا بالرياضة و الاجتهاد، كالسخاء يوجد في كثير من الناس من غير رياضة و لا تعب كالشجاعة و الحلم و العدل و غير ذلك من الأخلاق المحمودة و كثير من الناس من يوقر فيهم ذلك بالرياضة ، منهم من يبقى على عادته و يجري على سيرته.

فأما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل و الجبن و الظلم و التشرد، فإن هذه العادات غالبة من أكثر الناس مالكة لهم بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه و يسلم من جميع العيوب و لكنهم يتفاضلون في ذلك، و كذلك في الأخلاق المحمودة قد يختلف الناس و يتفاضلون إلا أن المجبولين على الأخلاق السيئة أكثر الناس لأن الغالب على طبيعة الناس الشر و صدق الكتاب العزيز (وإن تطع أكثر من

في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون)[20].

و عرفة ابن مسكويه بقوله الخلق حال للنفس داعية لها إلى أعمالها من غير فكر ولا روية ...و هذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب و يتهيج من أقل سبب وكالإنسان الذي يجبيء من أية شيء كالذي يفزع من أدنى صوت سمعة أو يرتاع من خبر يسمعه و منها ما يكون مستفادا بالعادة و التدريب و ربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر علية أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا[21].

و عرفة الغزالي في كتابة "علوم الدين" بأن: الخلق عباره عن هيئة راسخة في النفس عنها تصدر الأفعال بسهولة و يسر من غير حاجة إلى فكر و روية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا و شرعا سميت تلك الهيئة خلقا معنا، و إن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هي المصدر خلقا سيئا، و إنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفس ثبوت رسوخ، و إنما اشترطا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذلا المال أو السكوت عند الغضب

---

[20] سورة الأنعام: ١١٦.

[21] انظر ص ٢٥-٢٦ من تهذيب الأخلاق في التربية لابن مسكويه - دار الكتب العلمية.

بجهد و روية لا يوصف خلقه بالسخاء و الحلم[٢٢] و هذا التعريف ينطبق على ما يقوله الجرجاوى فى تعريفاته أيضا (الخلق هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة و يسر من غير حاجة إلى فكر و روية).

فالخلق على هذا صفة نفسية و هذه الصفة من سماتها الدوام و الثبات فالحلق لا يكون أمرا خارجيا بل هو شيء داخلى فهو صفة نفيسة و قد يظن البعض أن هناك صلة بين الفعل و بين الخلق و هذا غير صحيح فقد يوجد الخلق و لا يوجد الفعل، فأنت قد تكون فى خلقك السخاء و الكرم و مع ذلك فقد تجد مسكينا يتكفف الناس و تحاول أن تخفف عنه الألم فتسارع فى وضع يدك فى جيبك لتمنحه شيء من المال و لكنك لا تجد معك مالا تعطيه له، لقد وجد الخلق بالفعل و لكن الفعل لم يحدث، و لم يتم بل تخلف بسبب لا حيلة لك فيه و العكس كذلك صحيح فقد يوجد الفعل و لا يوجد الخلق فقد يتبرع إنسان بقدر كبير من المال لمساعدة الفقراء أو لبناء المساجد أو للمساهمة فى تحسين الخدمات العامة و مع ذلك قلنا لا نحكم عليه بأنه خلقه الكرم، ذلك أنه لم يعط المال عن سجية أو خلق و إنما رياء أو مجاملة لحاكم أو عظيم أو خداعا لجماهير الناس كى يتحقق من وراء ذلك منافع جمة تعود عليه بأضعاف ما تبرع به.

إن الخلق لا يكون معتبرا إلا إذا تكرر دون فكر أو روية و أصبح عادة له و سجية فى نفسه و إن يجعل عمله خالصا للخير المطلق و للفضيلة وجدها،

---

[٢٢] أنظر ص ١٣٦ من كتاب النفس أمراضها و علاجها فى الشريعة الإسلامية للأستاذ/محمد الفقى الطبعة الأولى مكتبة صبيح.

ذلك أن الفضيلة-كما يقول أفلاطون-لا تتحقق بعمل فاضل واحد و لكن لتكون حقيقة يجب أن تكون نتيجة لماض عمل طويل[٢٣].

و من المعروف أن الإسلام لا يعتد بعمل يصاحبه النفاق أو يكون الرياء حليفه فرسول الله صلى الله عليه و سلم يقول (إذا كان آخر الزمان صارت أمتي ثلاث فرق، فرقة يعبدون الله خالصا، و فرقة يعبدون الله رياء، و فرقة يعبدون الله ليستأكوا به الناس فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال: للذى يستأكل الناس و عزتى و جلالى ما أردت بعبادتى؟ فيقول و عزتك و جلالك أستأكل به الناس، قال لم ينفعك ما جمعت انطلقوا به إلى النار، ثم يقول للذى كان يعبد رياء: بعزتى و جلالى ما أردت بعبادتى؟ قال بعزتك و جلالك رياء الناس، قال: لم يصعد إلى منه شيء انطلقوا به إلى النار، ثم يقول للذى كان يعبده خالصا: بعزتى و جلالى ما أردت بعبادتى؟ قال: بعزتك و جلالك أنت أعلم بذلك من أردت به ذكرك ووجهك، قال: صدق عبدى انطلقوا به إلى الجنة[٢٤].

الطبيعة الإنسانية

هل الطبيعة التى فطر الله الإنسان عليها خيرة أم أنها شريرة؟ فى الحقيقة أننا إذا عدنا إلى آراء العلماء فى هذا المجال فلسوف نجد اختلافا كبيرا، إننا نجد:

١-من يقول بأن طبيعة الفطرة خيرة.

---

[٢٣] مقدمة الأخلاق لأرسطو طالس ص ٥٠ ترجمة أحمد لطفى السيد.

[٢٤] رواه الطبرانى.

٢- و منهم من يقول أنها شريرة.

٣- و منهم من يجمع فى الطبيعة الإنسانية بين الخير و الشر.

١-فمن القائلين بأن طبيعة الإنسان خيرة الفيلسوف اليونانى الكبير أفلاطون حيث يقول: إن أشد ما فى الإنسان من الاستعدادات الفطرية هو أن نفسه تجانب الشر و تجرى وراء الخير الأعلى و تلزمه حتى وصلت إليه[٢٥] و هذا ما يراه أيضا "سقراط" الذى يرى أن نفس الطفل منطوية على الكمال و لا يظهر إلا عند المناقشة و التحاور و قد ذهب إلى هذا الرأى كذلك الرواقيون فهم يرون أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر و الميل إلى الشهوات الرديئة التى لا تقمع بالتأديب[٢٦].

إن الرواقيين يقررون بأن الطبيعة الإنسانية طاهرة لأن سبب حياة هذه الطبيعة-فى نظرهم-هو الله حالا فى العالم كحلول النفس فى الجسد[٢٧] و هذا أيضا هو رأى زينون من قبل فكان يرى أن الطبيعة العامة إنما هى خير محض و قد علل ذلك بأنها صادرة عن الله و هو خير و لا يصدر عن الخير إلا الخير، و لقد ذهب كثير من الفلاسفة فى العصر الحديث إلى ما قاله الفلاسفة الأوائل و منهم على سبيل المثال جان جاك رسو الذى يرى

---

[٢٥] مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو طاليس ص ٦٤.

[٢٦] أنظر ص ١٣٧: النفس أمراضها و علاجها للأستاذ محمد الفقى.

[٢٧] أنظر ص ١٠١ من تاريخ الفلسفة لحنا أسعد طبعة اليوسفية.

بأن الفطرة خيرة و أن الشر عارض يأتي مع الحضارة و من هنا كان رسو ينادى بوجوب العودة إلى الطبيعة كى نحيا فى أحضانها.

٢-و هناك من يقول: إن الإنسان مجبول على نزعة الشر و أن التربية المتواصلة و التهذيب المستمر يكفكفان من هذه النزعة و أن الإنسان لو ترك على فطرته لكان شريرا، و يستدل هذا الفريق على صحة ما ذهبوا إليه بأدلة كثيرة مستمدة من الواقع و لعل أهمها ما يلى:

أولا: أننا ننزع فى الأطفال نزعة الشر واضحة جلية فالطفل إذا أمسك بلعبة حطمها، و إذا وقع في يده طائر فرق أشلائه دون رحمة أو شفقة .

ثانيا: أن واقع الحياة يؤكد هذا المعنى فالناس بين قوى قاهر و ضعيف مقهور، و لو أن الوضع انعكس لما تردد الضعيف في أن يمثل دور الطاغية المستبد، و قد دفع القائلين بهذا الرأي ما يرونه من شر مستفيض في كل مكان: شر مادى كالآلام بكل صنوفها و أشكالها، و شر معنوى كالخطايا بكل ألوانها و أنواعها و كل هذه الشرور ليست عرضيه، بل يستدعيها قانون الحياة الذى يحتم أن لا بقاء ألا للأقوى و الملاحظ أن هذه النزعة شائعة في كثير من الأمم و لها فى كثير من الأديان الوضعية فقد دعت إليها البردية و البرهمية و قد أثرت هذه النزعة التشاؤمية فى أبى العلاء المعرى فعبر عن رأيه في طبيعة النفس البشرية بقولة:

و الشر فى الجد القديم غريزة   فى كل نفس منة عرق ضارب

و يرى الدنيا كلها شر فيقول عنها

دنياك دار شرور لا سرور بها   و ليس يدرى أخوها كيف يحترس

ولا شك أن هذا الراى قد جانبه الصواب، فالإنسان ليس شريرا بطبعه بمقتضى فطرته، و الأدلة التى أقاموها لا تسندهم فيما ذهبوا إليه، و لا تدل إلا على خطأهم فى النظر و الاستنتاج و فى المقدمات و النتائج.

فأما عن دليلهم الأول: فان الطفل لا يحطم اللعبة و لا يمزق أشلاء الطائر استجابة لغريزة الشرفية و لكن الطفل يفعل كل ذلك استجابة لغريزة " الفك و التركيب" كما يقول "علماء النفس" أو بمعنى أوضح أن الطفل يفعل ذلك طلبا للمعرفة. لأنة يجهل كل شيء حوله، و لذلك يحاول فك كل شيء يقع في يده و تركيبة من جديد حتى يعرف ما هو؟

و أما عن دليلهم الثاني فان ظلم الناس بعضهم بعضا فإنها ينشأ ذلك لتعارض المصالح و المنافع و ليس هناك شخص يقتل لمجرد القتل أو لأنة شرير بالطبع و لكن ربما للدفاع عن مصلحته ثم أن الناس ليسوا كلهم على هذه الوتيرة فهناك الأخيار و الأبرار فمن خطأ الاستدلال أن نأخذ جانبا و نهمل الآخر[٢٨].

٤- أما أصحاب الرأى الثالث فانهم يرون أن الإنسان ليس خيرا بطبعة كما أنة ليس شرا بطبعة، بل أن الإنسان يميل و عنده الاستعداد لأيهما و البيئة الاجتماعية و الثقافية و نوع التعليم و ما إلى ذلك من الموصلات الحضارية هى التى تكون طبيعته و قد كان "جالينوس" قديما يرى أن

---

[٢٨] ص ٢٦-٢٧ د. محمود مزروعة فى كتاب دراسات فى علم الأخلاق مطبعة العاصمة ١٩٧١ م.

الناس فيهم ما هو خير بالطبع و فيهم ما هو شر بالطبع و فيهم ما هو متوسط بين هذين ثم أفسد المذهبين الأولين[٢٩]، و قد ذهب كثير من علماء الإسلام إلى هذا الرأى الأخير يقول الإمام الغزالى صاحب كتاب "إحياء العلوم الدين"[٣٠] (أن للصبى خلق قابلا للخير و للشر و إن أبويه يميلون به إلى أحد الجانبين) و يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته: إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت مهيأة لقبول ما يرد عليها و ينطبع فيها من خير أو شر.

هذا و من المعروف أن الإسلام قرر أن طبيعة الإنسان تقبل الخير كما تقبل كذلك الشر، و من قال غير ذلك فإننا نسأله: لماذا أرسلت الرسل إذن؟ و لماذا يقول الله جل جلاله (إنا هديناه النجدين) و النجدين هما الطريقان الواضحان المرتفعان: طريق الخير و طريق الشر، و لماذا جاءت الوصايا بترك الشر و التمسك بالخير و نبذ الرذيلة و العمل بالفضيلة (و العصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر)[٣١]، و لماذا أنزلت هذه الآية الكريمة (إنا هديناه السبيل إما شاكرا و إما كفورا)[٣٢]، و جاءت هذه الآية الشريفة (و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها قد أفلح من زكاها و قد خاب من دساها)[٣٣].

---

[٢٩] أنظر ص ١٣٧ النفس أمراضها و علاجها للأستاذ محمد الفقى.

[٣٠] ص ٣-٥٤.

[٣١] سورة العصر الآيات ١-٣.

[٣٢] سورة الإنسان/٣.

[٣٣] سورة الشمس/٧-١٠.

إننا نميل إلى هذا القول الأخير الذى يقرر أن الإنسان يولد و عنده استعداد للخير و الشر و التربية هى التى تظهر أحدهما على السطح و تهبط بالأخر إلى القاع، و لقد حث الله جل جلاله النفس البشرية أن تسلك طريق الخير و تترك طريق الشر فإذا ما أطاعت أمر ربها فاتجهت فى طريق الحق ء تركت طريق الباطل و تمسكت بالخير و ابتعدت عن الشر و فعلت الحسن و أهملت القبيح فلسوف تشعر بالسعادة تغمرها و بالطمأنينة تلفه حياتها و بالأمان يملأ كيانها و تكون هى المعينة يقول الحق تبارك و تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى و ادخلى جنتى)[٣٤].

أما إذا خالفت النفس أمر ربها و اتبعت هواها و تركت للشهوات قيادتها فإنها تكون و الأمر كذلك هى المقصودة بقوله تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى)[٣٥]، هذه الحقيقة نلمحها فى قوله تعالى (فأما من طغى و آثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى و أما من خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى)[٣٦].

---

[٣٤] سورة الفجر/٢٧-٣٠.

[٣٥] سورة يوسف/٥٣.

[٣٦] النازعات/٣٧-٤١.

قبول الأخلاق للتغير

هى الأخلاق قابلة للتغير أو أنها ثابتة و لا تتغير مهما حاول الإنسان العمل بالتربية على تغيرها؟

لقد اختلف الباحثون فى ذلك، فيرى فريق منهم أن الأخلاق لا تتغير بل هناك استحالة فى ذلك لأن الناس-فى نظرهم-قد جبلوا على الخير أو على الشر و هؤلاء يعتبرون فى رأيهم قول الشاعر :

و لن يستطيع الدهر تغير خلقه　　　لئيم و لا يستطيعه متكـــــــرم

و ما هذه الأخلاق إلا غرائـز　　　فمنهن محمود و منهن مذموم

و قد يؤيدون رأيهم فى هذا المجال بما جاء فى الأثر (من أتاه الله وجها حسنا و خلقا حسنا فليشكر الله) و ما روى فى هذا المعنى (فرغ الله من الخلق و الخلق) و من هنا فإنهم يقولون لن يستطيع المخلوق تغيير عمل الخالق.

و هناك فريق آخر يرى أن الأخلاق مكتبة من التربية و من البيئة و من الوراثة و يرون أنه يمكن تأويل حديث الرسول صلى الله عليه و سلم: بأن الله فرغ من تقدير الخلق و الخلق و على ذلك فإنه يمكن تغيير الخلق فلا شيء من الأخلاق فى نظرهم-مطبوع و ليس يتعذر على الإنسان أن يتحول من خلق إلى آخر فقد ينقلبّ الطالح صالحا، كما ينقلب المفسد مصلح، و على رأس القائلين بهذا الرأى (ابن مسكويه) صاحب كتاب تهذيب الأخلاق.

و لا شك إن هذا الرأى صواب و إلا لفقدت التربية قيمتها و لكان إقامة دور التعليم و التربية و التهذيب لا فائدة منها و لا أمل فيها و لذا فإننا نجد أن (ابن مسكويه) يؤلف كتابه السابق (تهذيب الأخلاق) أو كما يسميه (مسكويه) فى عرض كلامه (طهارة الأعراق) و يضع فيه آراء و وصايا تعتبر بحق برهانا عمليا و دليلا ماديا على إقناعه بإمكان تغير الأخلاق، إنه يقول (لا خلق و لا واحد منه بالطبع)[٣٧].

و هناك نصوص كثيرة من كتاب (ابن مسكويه) قد تجعل هذا الكتاب تربويا أكثر من أن يكون كتابا فى فلسفة الأخلاق و لا يبطل هذا ما عرضه (ابن مسكويه) فى هذا الكتاب من أقوال فلاسفة الأخلاق أنفسهم لأن النغمة العالية التى سار عليها هذا الكتاب من أوله إلى آخره هى نغمة المربى و المعلم الذى يهمه أن يقنع القارىء أو الطالب بمبادئه.

هذا و يلاحظ أن هذا الرأى الذى أختاره (ابن مسكويه) يتفق تماما مع تعاليم الإسلام، فلو لم يكن تغيير الخلق ممكنا لما قال الرسول صلى الله عليه و سلم لمعاذ بن جبل رضى الله عنه (استقم و ليحسن خلقك)[٣٨] و الله جل جلاله أعدل من أن يعذب قوما مطبوعين على الشر لا يستطيعون منه فكاكا بما اقترفوا من ذنوب و آثام و هو القائل فى كتابه الكريم (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها).

---

[٣٧] تهذيب الأخلاق ص ٢٧.

[٣٨] ص ١٣ الترغيب و الترهيب.

أثر الوراثة و البيئة في تكوين الأخلاق

من المعروف أن الخلق ينشأ في المجتمع أو في البيئة التي يعيش فيها الإنسان و أن هذا الخلق يتأثر بصورة أو بأخرى بما يجرى في هذه البيئة و مع ذلك فإن هناك من يشارك البيئة في عملية التأثير و نعني بهذا الوراثة.

و من هنا فإن علماء الأخلاق يقرون أن الإنسان نتاج البيئة و الوراثة و هما العاملان الأساسيان في تكوين الخلق و من هنا كان لا بد أن نتحدث عن الوراثة ثم البيئة و أثر كل منها في سلوك الإنسان و خلقه.

أثر الوراثة في الأخلاق

من المعروف أن الأفراد يختلفون في تكوينهم الجسمي و استعداداتهم الفيزيولوجية كما يختلفون في الشكل و الوزن و اللون و الصحة و الأحاسيس و النشاط و قوة السمع و متوسط الذكاء و القدرات الخاصة و هذا يرجع إلى عامل الوراثة، فما هذه الوراثة يا ترى؟

يقصد بالوراثة انتقال عدة صفات أو استعدادات إلى الكائن الحي من أصوله القريبة أو البعيدة أو من الفصيلة التي ينتمي إليها بصفة عامة و لا تقتصر هذه الوراثة على الأمور المتعلقة بالتكوين الفيزيقي (الجسمي) مثل ش. الوجه و الطول و القصر و لون البشرة بل تشمل أمور تتعلق بالناحية العقلية مثل الذكاء و البله و قوة العزيمة و الإرادة و مقومات الشخصية، و تشمل الوراثة كذلك أمور تتعلق بالفضائل أو النقائص الخلقية مثل الكرم و

البخل، و الشجاعة و الجبن، و التقوى و الورع، و حب الرذيلة و الميل إل الإثم.

فكأن الوراثة لا تكون مقصورة على الصفات السوية الصالحة فحسب بل تشمل كذلك الصفات غير السوية و الحالات المرضية (الباثولوجية) فقد يرث الطفل بعض العاهات الجسمية، و بعض النقائص العقلية، و بعض الرذائل الأخلاقية[٣٩].

و يرجع السبب الطبيعي للوراثة إلى ما تنقله المادة الحيوية من صفات إلى الجنين، و لما كانت المادة الحيوية مكونة من عنصرين أو خلقين هما البويضة و اللقاح، كانت الصفات التي يرثها الفرد من أمه أو عن أصولها تأتيه من البويضة، و الصفات التي يرثها عن أبيه أو من أصوله تأتيه من اللقاح. هذا و لا تقتصر الوراثة على الصفات الفطرة الطبيعية و القدرات الكامنة في تكوين الفرد، و لكنها قد تكون كذلك في الصفات المكتسبة و الخبرات الخاصة التي يحصل عليها الفرد في حياته تحت تأثير البيئة الجغرافية و الاجتماعية و بفضل مجهوداته الخاصة أو ما يعرض له من حوادث. هذا و يمكن ارجاع ما ينتقل للإنسان عن طريق الوراثة إلى:

١- خصائص جسمية.
٢- خصائص عقلية.
٣- خصائص خلقية.

---

[٣٩] ص ١٢٤ من علم الاجتماع و مدارسه للدكتور/مصطفى الخشاب، الطبعة الثانية ١٩٥٦ م مكتبة القاهرة الحديثة ص ١٥٧.

و يمكن تقسيم هذه الخصائص الموروثة إلى:

أ. خصائص فطرية.

ب. خصائص مكتسبة.

هذا و لقد انقسم العلماء بصدد ميراث الخصائص المكتسبة إلى فريقين:

الفريق الأول: من العلماء المحدثين و في مقدمتهم أصحاب مذهب التنشئة و الارتقاء من أمثال "لامارك" و "دارون" و "سبنسر" و هؤلاء جميعا ذهبوا إلى أن الصفات المكتسبة تورث كالصفات الفطرية و يستدل هؤلاء على صحة رأيهم بأدلة بيولوجية كثيرة. فمثلا سواد البشرة في سكان المناطق الحارة لم يكن طبيعيا في أصولهم، و إنما اكتسبوها اكتسابا تحت تأثير البيئة الجغرافية و أصبح مع تقادم الزمن صفة وراثية تناقلها الفروع عن الأصول و كانت بعض القبائل البدائية في "بيرو" يغيرون أشكال رءوس أولادهم بعد ولادتهم بعمليات تدليكية خاصة، و مع تقادم الزمن أصبحت هذه الصفة وراثية، و أصبح نسلهم يولد مشوه الرأس[٤٠]، وكذلك جرت عادة "الاسكيمو"-سكان المناطق الشمالية في أمريكا-أن يقلعون أذناب كلابهم التي يعدونها لجر عرباتهم على الثلج، و قد لوحظ أن معظم أولاد هذه الطائفة من الكلاب تولد بدون أذناب[٤١].

---

[٤٠] الوراثة و البيئة للدكتور/على عبد الواحد وافى ص ٤٤ سنة ١٩٥٠ م.

[٤١] أنظر ص ١١٩ من فلسفة الأخلاق لمنصور رجب.

و يرى بعض أنصار هذا الاتجاه فى تقدير الآثار المترتبة على انتقال الصفات المكتسبة عن طريق الوراثة، فيقررون أن ليس ثمة صفات فطرية أو طبيعية، و إن كل ما ينتقل إلى الفرد إنما هى صفات مكتسبة و ما يظن أنه فطرى فقد أنتقل فى فترة ما عن طريق الاكتساب ثم ثبت فى الأصول بشكل يوحى أنه فطرى غريزى[42].

<u>الفريق الثانى</u>: فإنه يرى أن الصفات المكتسبة غير قابلة للانتقال عن طريق الوراثة، و أن وظيفة الوراثة مقصورة على نقل الصفات الفطرية و القدرات الغريزية، و هذا الرأى ضعيف فقد ثبت بالتجارب و الدراسة الإحصائية، أن كثير من الصفات المكتسبة قد ثبتت فى الأصول التى تزاولها ثم انتقلت بالوراثة إلى فروعها غير أن هذا الانتقال لم يكن مطردا فى كل الأحوال. و لا يميل كثير من علماء الوراثة إلى الأخذ بوجهة النظر هذه لأنها تنطوى على التقليل من شأن الوراثة و التضييق من خطر وظيفتها، فتجعلها مقصورة على مجرد المحافظة على القديم و إعطاء هذا القديم إلى الأشياء فى صورته الجامدة و قوالبه الطبيعية. هذا و من المعروف أن المربى الكبير "مسكويه" يقرر أن الطفل لا يرث شيئا من الأخلاق عن أبويه ذلك أن نفس الطفل -فيما يراه- ساذجة لم تنتقش بعد بصورة و ليس لها رأى و لا عزيمة تميلها من

[42] ص ١٢٦ من علم الاجتماع و مدارسه للدكتور/مصطفى الخشاب، الطبعة الثانية.

شيء إلى شيء فإذا انتقشت بصورة نشأ عليها و اعتادها و يؤكد رأيه في علم وراثة الأخلاق بقوله (ليس شيء من الأخلاق بطبيعي"، ثم يقرر "مسكويه" بعد ذلك أن الصبى في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال إما كلها و إما أكثرها، فإنه يكون كذوبا يحكي ما لم يسمعه و لم يراه..إلخ.

و إننا نسأل "مسكويه" إذا لم يرث الطفل الأخلاق عن والديه، فمن أين جاءته الأفعال القبيحة أول نشأته؟ ألا يدلنا هذا على أن الطفل يرث عن أبويه بعض الأخلاق و التقاليد ثم كيف نوفق بين نشأة الطفل على هذه القبائح و بين سذاجة نفسه و خلوها من جميع الأخلاق كما يرى مسكويه؟ و بعد فما حقيقة الأمر في وراثة الأخلاق؟ يذكر صاحب كتاب "مباحث في فلسفة الأخلاق"[٤٣] آراء العلماء حول الوراثة للصفات عامة و للأخلاق خاصة ثم يقرر أنه من المؤكد وراثة التقاليد و الأخلاق.

و قد أثبت الأستاذان "ديهو" و "فوجيه" في تقرير قدماه إلى أكاديمية العلوم بباريس أن الجنين الذى يتكون في حالة يكون فيها أحد أصلابه فاقدا وعيه بخمر أو بأى تخدير أخر، ينشأ في الغالب أبله ضعيف القوى العقلية، أو به جنون

---

[٤٣] الدكتور محمد يوسف موسى ص ٧٩.

أو صرع، و أيدوا حكمهم هذا بإحصائيات دقيقة واضحة هدتهم إليها ملاحظاتهم و تجاربهم. إن الأخلاق تورث و هذا لا يمنع من كون الفطرة البشرية صالحة لكل نقش و غرس كما يقول "مسكويه" لن الخلاق التى يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع سهلة الذهاب ما لم يتعهدها المربون. يقول الراغب الأصفهانى فى كتابه "الزريعة إلى مكارم الشريعة" إن المآثر الموروثة قليلة الغناء سريعة الفناء ما لم يضم معها فضيلة النقش، و من هنا الحاجة الماسة للمربى الحكيم فهو القادر على أن بما جاء به الصبى من حسنات كما فى يده أن يقلل من حرقها و يخفف من شدتها إن صحة للطريقة الأخرى[44].

أثر البيئة فى الأخلاق

البيئة و قانونها

إن البيئة هى كل ما يحيط بالمرء و يؤثر فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فى جميع مراحل حياته من يوم أن يولد المرء و حتى يفارق الحياة الدنيا. و قانونها هو: تكييف الكائن الحى نفسه حسبما يحيط به ليعيش، و لقد خلق الله الكائنات الحية و هيأ لها البيئة التى تتناسب مع تكوينها و من هنا كان اختلاف البيئات، فبيئة الإنسان تختلف عن بيئة غيره ممن يشاركه فى هذه الحياة كالطير و النحل و السمك و ما إلى ذلك، و تتنوع بيئة الإنسان إلى:

---

[44] الوراثة و البيئة للدكتور على عبد الواحد، أنظر ص ١٩-٢٠ من مباحث فى علم الأخلاق للدكتور خضير الطبعة الأولى ١٩٧٦ م.

أ-بيئة طبيعية: و هى كل ما يحيط به من مظاهر طبيعية من جبار و صحراء و أنهار و أشجار و حرارة و برودة و غير ذلك.

ب-بيئة اجتماعية: و هى كل ما يحيط بالإنسان مما سوى المظاهر الطبيعية و ذلك مثل المنزل و المدرسة و المسجد و غير ذلك.

و ليس من شك فى أن البيئة لها أثر قوى فى تكوين الأخلاق سواء فى ذلك البيئة الطبيعية أو البيئة الاجتماعية.

البيئة الطبيعية

إن للبيئة الطبيعية أثرا فعالا فى تكوين الأخلاق، عكس ما يفهم كثير من الناس، و قد توصل العلامة ابن خلدون إلى ذلك من خلال ملاحظاته العديدة، فيتحدث عن سكان الأقاليم المعتدلة و عن تأثير البيئة الطبيعية فيهم فيقول: (إنهم أعدل أجساما و ألوانا و أخلاقا) ثم يقرر مستنتجا حقيقة هامة و هى أن الله تعالى قد اختار هذه الأقاليم لتكون مهدا لرسالة الأنبياء، لأن الأنبياء و الرسل إنما يختص بهم أكمل النوع الإنسانى ف خلقهم و أخلاقهم[٤٥]. و لا شك أن الواقع يؤيد ما ذهب إليه ابن خلدون حيث نرى أن سكان المناطق الحارة سريعو الرضا و كسالى لا يفكرون إلا فى حاضرهم، و هذا عكس ما نجده عند سكان المناطق الباردة حيث يمتازون باليقظة و يقدرون المسئولية و التروى و الهدوء و التفكير فى المستقبل، و لا شك أن الاختلاف بين هؤلاء وهؤلاء يرجع إلى اختلاف البيئتين الطبيعيتين.

---

[٤٥] ص ٦٢ مقدمة ابن خلدون طبعة الشعب.

البيئة الاجتماعية

مما لا ريب فيه أن البيئة الاجتماعية أشد أثرا و أقوى فاعلية من البيئة الطبيعية ذلك أن العوامل الطبيعية جامدة و أما العوامل الاجتماعية فهي مثيرة النمو الفكري و النضج العقلي بل إن الإنسان بفضل التقدم الفكري و الحضاري قد استطاع أن يسيطر على البيئة الطبيعية و يغير فيها فأحال الصحراء القاحلة إلى جنات وارقة، و غير مجرى الأنهار و ما ذلك إلا أن تأثير البيئة الاجتماعية أبعد مدى و أعظم عمقا من تأثير البيئة الطبيعية.

هذا و تبدأ البيئة الاجتماعية في عهد مبكر في حياة الإنسان منذ أن يوجد جنينا في بطن أمه حيث يتأثر و مجالاتها النفسية و ما تشعر به من سرور و ألم، و سعادة و شقاء، و فرح و حزن، ثم يأتي بعد ذلك دور المنزل و فيه يتعلم المرء بعض القيم الاجتماعية و التقاليد التي يتعارف عليها المجتمع لذلك ينبغي ألا يتطرق إلى مسامع المرء في المنزل إلا كل ما يرتفع به إلى السمو الخلقي، و يأتي بعد ذلك دور المدرسة و الجامعة و الشارع و المسجد و غير ذلك من وسائل الإعلام التي تؤثر بصورة أو بأخرى في حياة الإنسان و في خلقه و طريقة سلوكه.

هذا و ينبغي أن يعلم الجميع ما للأصدقاء دورا كبيرا و تأثيرا عظيما في أخلاق الإنسان، فلقد دلت التجارب و شهد الواقع على أن الإنسان خاصة في مبدأ حياته يميل إلى الأصدقاء و يتأثر بهم، و من هنا ينبغي أن يحذر من مصاحبة الأشرار هؤلاء الذين لا هم لهم إلا العبث و ضياع الوقت دون هدف صالح في الحياة و قد حذرنا القرآن الكريم من قرين السوء في حوار قرآني أجراه على لسان أحد أهل الجنة يوم القيامة حيث قال تعالى:

(فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قال قائل منهم إني كان لي قرين، يقول أءنك لمن المصدقين، أءذا متنا و كنا ترابا و عظاما أءنا لمدينون، قال هل أنتم مطلعون، فاطلع فرءاه في سواء الجحيم، قال تالله إن كدت لتردين، و لولا نعمة ربي لكنت من المحضرين)[٤٦].

كذلك أوصانا الرسول صلى الله عليه و سلم بحسن اختيار الأصدقاء فقال عليه الصلاة و السلام فيما يرويه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه (لا تصاحب إلا مؤمنا و لا يأكل طعامك إلا تقي)[٤٧]. و عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إنما مثل الجليس الصالح و جليس السوء كحامل المسك و نافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك و إما أن تبتاع منه و إما أن تجد منه ريحا طيبة و نافخ الكير إما أن يحرق ثيابك و إما أن تجد منه ريحا نتنة)[٤٨].

و إذا كان المرء على دين خليله-على حد تعبير رسول الله صلى الله عليه و سلم فإنه يتحتم علينا أن نختار لأبنائنا الصديق الفاضل و مجالس الصالحين و الرفقة المؤمنة و الأنداد و الأتراب الذين ربوا تربية صالحة هؤلاء الذين يقضون أوقات فراغهم فيما ينفع مجتمعاتهم و يزكي أنفسهم و أن يحفظ مما يدنس نفوسهم أو يضع أوقاتهم في غير طاعة أو فائدة علمية

---

[٤٦] سورة الصافات/٥٠-٥٧.

[٤٧] رواه رواه ابن حبان، أنظر الترغيب و الترهيب ص ٣ ص ٢٦٤ طبعة أولى، الحلبي.

[٤٨] متفق عليه أنظر رياض الصالحين ص ٨٤ .

أو كسب دنيوى حلال عملا بقول الله تعالى (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس و من يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نأتيه أجرا عظيما)[٤٩].

إن تأثير البيئة الاجتماعية فى حياة الإنسان تأثير واضح لا يستطيع إنسان ما أن ينكره أو يجحده أو يقلل من شأنه و لذلك ينبغى أن تحرص كل الحرص على أن تكون هذه البيئة الاجتماعية على قدر كبير من المثل الفاضلة و الأخلاق الحسنة و السجايا الكريمة كى نطمئن-إلى حد ما-على نشأة أبنائنا فى هذا الوسط الاجتماعى-نشأة كريمة يسعد بها الوطن و يقوى بها المجتمع و تقر بها أعيننا.

[٤٩] سورة النساء/١١٤.

المسئولية الخلقية و الجزاء

تمهيد

ليست مشكلة المسئولية مجرد مسألة فلسفية يهتم بها علماء الأخلاق، بل هى أيضا مشكلة إنسانية كبرى،و يعنى بدراستها الباحثون الاجتماعيون و علماء النفس و رجال القانون والمشتغلون بعلم الأجرام.............. الخ. و ليس فى وسع فيلسوف الأخلاق أن بصرف النظر عن مباحث كل هؤلاء فان من المؤكد أن مشكلة الجزاء المترتب على مسئولية الإنسان على أعماله هى من المشكلات الاجتماعية الهامة التى لابد لفهمها من الإلمام بالكثير من الدراسات النفسية و الاجتماعية الخاصة بأثر العقوبة فى نفس الفرد و دورها فى تحقيق التنظيم الاجتماعى ....الخ.

و لن يكون فى وسعنا بطبيعة الحال أن نتعرض هنا لدراسة كل هذه المسائل الخطرة و لكن سنحاول فيما يلى أن نلقى بعض الأضواء على الجوانب الأخلاقية الهامة من مشكلتى المسئولية و الجزاء.

معنى المسئولية

تعرف المسئولية فى إطارها العام بأنها صلاحية الإنسان لان يتحمل تبعات ما يصدر عنة من أفعال، و هى ناشئة عمّا يتمتع به الإنسان من نعمه العقل و الإرادة فالعقل يميز به بين الخير و الشر و الحسن و القبيح، أما الإرادة فتختار من بين ما يشير به العقل، و التمتع بنعم العقل و الحرية و الحساسية الشعورية و إدراك المرء لأعماله و نتائجها إدراكا كاملا يستتبع أن يكون مسئولا عن كل عمل يعمله و يتحمل نتائجه أما الأمور التى تخرج عن حد

الاختيار، فلا مجال للمسئولية الأخلاقية معها و يسقط التكليف بها لأنه (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)[50]، (و ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به و لكن ما تعمدت قلوبكم)[51]، (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان و لكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله و لهم عذاب عظيم)[52].

و هكذا فان محور المسئولية الأخلاقية الإرادة الحرة المستنيرة و من هنا كان على المرء أن يتحمل تبعة ما يصدر عنة من سلوك: و في ذلك يقول الدكتور عبد الله دراز:

المسئولية ترتبط ارتباطا وظيفيا بالشخصية، و لذلك لا تطيقها غير الإنسان البالغ العاقل الواعى بتكاليفها، و بحيث يتمثلها أمام ناظره فى لحظة العمل فإذا ما تحددت صفات الشخص تعين بعد ذلك أن يكون مسئولا عن الأفعال التى يأتيها بإرادته الحرة، و إذن فالإرادة و الحرية و هما من الناحية العملية مترادفات،و ليس لأى قوة فى الطبيعة باطنة و ظاهرة سلطة كافية لكى تحرك أو توقف النشاط الجوانى لإرادتنا[53].

---

[50] سورة البقرة :٢٧٦.

[51] سورة الأحزاب: ٥.

[52] سورة النحل : ١٠٦.

[53] أنظر ص ٢٤١د. محمد عبد الله دراز: الأخلاق فى القرآن.

المسئولية و الشخصية

إذا كان علماء الاجتماع من أمثال(فوكونيه) قد ذهبوا إلى أن المسئولية فى أصلها خارجية اجتماعية بدليل أن شعور الفرد بالإلزام لم يكن منذ البداية سوى مجرد صدى من ضميره الفردى لانفعالات النفس الجماعية، فأن هذا لا يمنعنا من القول بأن ترقى الشعور الخلقى قد جعل من المسئولية إحساس فرديا ذاتيا لا مجرد ظاهرة اجتماعية موضوعية.

و قد روى لنا عالم النفس المعاصر"بياجيه" كيف أن صغار الأطفال(حتى فيما قبل السابعة) ينفرون من العقوبة الجماعية و لا يقرون غالبا مبدأ توقيع الجزاء على المجموعة كلها لخطا أرتكبه أحد أفرادها [٥٤].

و نحن أيضا-فى المجتمعات الحديثة-نجزع أشد الجزع لنظام المسئولية الجماعية، بدليل أننا لا نقر بأى حال طريقة الانتقام من عائلات المجرمين أو نظام الرهائن أو أساليب الإعدام الجماعى.

حقا أن بعض العشائر المختلفة أو الأسر الرجعية أو الجاهلية فى بعض الأحايين ما زالت تلجأ إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية فى أخذها بالثأر من أهل العصبات الأخرى،و لكن من المؤكد أننا سائر و مر فى طريق الترقى الخلقى متجهون حتما نحو تعميم المسئولية الفردية.

---

[٥٤] ص١٥٦ من مبادئ الفلسفة و الأخلاق د.زكريا إبراهيم.

المسئولية و النية

اهتم أحد علماء النفس المعاصرين إلا و هو "بياجيه"[٥٥] بدراسة تطور الشعور بالمسئولية عند الطفل فبين لنا أن الطفل فى المرحلة الأولى من مراحل تطوره، يتصرف بكل اهتمامه نحو نتائج الفعل، بينما نجده فى المرحلة المتأخرة من مراحل تطوره يوجه كل اهتمامه نحو نية الفاعل الذى حقق الفعل، و معنى هذا أن نظرة الطفل إلى المسئولية فى البداية تكون نظرة موضوعية حتى إذا ما ترقى الطفل فى نضجه العقلى و النفسى أصبح ينظر إلى المسئولية نظرة ذاتية.

و الواقع أن الراشدين أنفسهم قد يحكمون على المسئولية أحيانا حكم الطفل الساذج البسيط، فترى الوالدين مثلا يقدرون مسئولية أطفالهم بالرجوع إلى نسبه الخسائر التى تسببت عن أفعالهم، كذلك قد يحدث أحيانا أن يحكم القضاة على درجة مسئولية المجرم بقياس نسبة الأضرار التى نتجت عن جريمته.

و منذ عهد قريب فطن بعض المشرعين إلى ضرورة تعديل القوانين بما يضمن إدخال "النية" فى الاعتبار حتى لا تتصرف الإنسانية الراقية فى حكمها على الأطفال تصرف الشعوب البدائية التى كانت تقيس المسئولية قياسا كما محضا.

---

[٥٥] فى كتاب (ترقى الوجدان الخلقى عند الطفل).

و لا ريب أن تقدم الضمير الإنساني لابد أن يقترن بزوال النظرة الواقعية إلى المسئولية من أجل إدخال عنصر "القصد" أو "النية" فى الاعتبار عند الحكم على مدى خطورة الفعل أو تفاهته[56].

تعدد المسئولية

المسئولية متعددة متنوعة حسب القوة التى تطلب منا الفعل و تسارع-نحن البشر-فى تنفيذه خوفا من العقاب و طمعا فى الثواب و أملا فى تحصيل الخير و تحقيقا للمنفعة العامة، فإن كانت هذه القوة تتمثل فى أوامر الله جل جلالة فان المسئولية تكون دينية و إن كانت هذه القوة تتمثل فى المجتمع فالمسئولية تصبح-حينئذ-مدنية-أما إذا كان المصدر فى الإلزام هو شعور الفرد و وجدانه و هو ما يسمى"بالضمير" كانت المسئولية أخلاقية.و على ذلك فالمسئولية متعددة:

١- هناك مسئولية دينية.

٢- و مسئولية اجتماعية أو مدنية أو قانونية.

٣- و مسئولية أخلاقية.

و يلاحظ إن هذه المسئوليات المختلفة قد تجتمع فى فعل واحد يصدر عن الإنسان فيصبح مسئولا مسئولية طبيعية و اجتماعية و قانونية و خلقية و دينية و ذلك إذا قتل الإنسان نفسا دون ما جريرة أو ذنب و بغير حق فهذه جريمة تدخل تحت طائلة هذه القوانين و هو مسئول عنها أمام كل قانون منها: أنة مسئول أمام الله الحاكم الأعظم و أمام الأخلاق و أمام قوانين الجماعة و أمام القانون العام.

---

[56] ص١٥٣-١٥٤: مبادئ الفلسفة و الأخلاق. د.زكريا إبراهيم..

هذا ويمكن أن نرجع المسئولية إلى نوعين فقط:

١ - فإذا كان مصدر الإلزام من داخل المرء من ضميره و إيمانه بالقيم الفاضلة و بالمثل العليا و بالسجايا الكريمة تكون المسئولية أخلاقية.

٢- و إذا كان مصدر الإلزام من داخل الإنسان بل من الخارج كالسلطة و القانون و العرف و الضغط الاجتماعى فان المسئولية تكون قانونية.

المسئولية القانونية

تنقسم المسئولية القانونية إلى نوعين:

مسئولية مدنية: تقضى بإلزام الفرد بالتعويض عن الضرر الذى يلحقه بالآخرين فى حالات خاصة و ظروف معينة يحددها القانون.

مسئولية جنائية : تقضى بإلزام الفرد بتحمل العواقب الناجمة عن فرقة النظام أو تعدية و طغيانه على حقوق الآخرين فى الحالات و الظروف التى تنص عليها القانون سواء أكان مدنيا أو جنائيا يعرض صاحبه للمحاكمة أمام هيئة خاصة ينظمها التشريع القائم فى المجتمع و يترتب علية تحمله لبعض العقوبات التى ينص عليها القانون.

و لكن هناك مسئولية أخرى لا ينظمها القانون و لا تنفذها المحاكم و تلك هى المسئولية الاجتماعية التى تعوض صاحبها لحكم الجمهور بالاستحسان أو بالاستهجان، و هذا النوع الخارجى من المسئولية يتفق مع النوعين السابقين فى أنه موضوعى، و لكنه يختلف عنهما فى أنة غير منظم.

فالراى أن العام هو المحكمة اليومية التى تصدر أحكامها على أفعالنا الخارجية و إن كانت الجزاءات التى تنطق بها هذه المحكمة مجرد أحكام زائفة منتشرة بين الناس دون أن تتولى تنفيذها هيئة خاصة.

أما النوع الثانى من المسئولية، و هو المسئولية الداخلية أو الأخلاقية فإنه يعبر عن إحساس الفرد بنتائج أفعاله الحرة و محاسبته لنفسه بطريقة ذاتية استبطانية.

و لنفرض مثلا أنى ابديت إلى أحد معارفى نصيحة مغرضة أو أننى قدمت لزملائى قدوة سيئة فإن القانون المدنى فى هذه الحالة لن يعاقبنى و لكن هناك من هو أشد وطأة من القانون المدنى سوف يعاتبنى بل يؤنبنى و لا أستطيع منه فرارا: إنه الضمير الذى سكن داخلى فنحن هنا أمام مسئولية أخلاقية دون أن تكون ثمة مسئولية مدنية و هذه المسئولية الأخلاقية إنما يستشعرنا حينما يحاسب نفسه أمام ضميره فلا يحكم على الأفعال بظواهرها بل يحاسب نفسه على النيات و سواء أكان الفعل داخليا أو خارجيا فإن محكمة الضمير لا بد من أن تراعى قواعد "العدالة الأخلاقية" التى هى أكثر دقة و أشد صرامة من العدالة القانونية وإذا كان القانون مثلا لا يعاقب على الرياء و النفاق أو سوء الظن أو الحسد أو الهواجس الشريرة، فإن الضمير كثيرا ما يدخل كل هى الضروب المختلفة من السلوك فى عداد الأفعال التى يحاسب عليها الفرد فيعده مسئولا عنها و نفرض عليه جزاءات خاصة للتفكير عنها.

و المسئولية الأخلاقية تزيد من شعور الفرد بحريته و تضاعف من إحساسه بقدرته على توجيه مصيره، و من ثم فهى تضع على عاتقه تبعة و جوده نفسه. و كلما زاد حظ الفرد من السمو الخلقى عظمت المسئولية الأخلاقية

التى يأخذها على عاتقه. و لكن ليس المهم فى هذه المسئولية أن تكون واسعة بعيدة المدى بل المهم أن تكون عميقة أو بالغة الأثر[٥٧].

هذا و يمكن تلخيص الفرق بين المسئولية القانونية و الأخلاقية فيما يلى:

١- المسئولية الأخلاقية تتعلق بالقصد و النية، فالمرء محاسب على إرادته و بواعثه أخلاقيا، أما القانونية فيعنيها فى المقام الأول الفعل المادى عند وقوعه فبينما يؤاخذ المرء أخلاقيا عن نيته سرقة جاره أو إيذائه فإنه لا يكون مسئولا أمام القانون إلا عند تنفيذه الإيذاء أو السرقة.

٢- المسئولية الأخلاقية أوسع دائرة من القانونية و أكثر شمولا، فهناك أعمال كثيرة لا تدخل تحت طائلة القانون و لكنها تدخل تحت مقياس القانون الخلقى.

٣- المسئولية الأخلاقية تسمو على القانونية لأن الأولى تتناول العدل و الإحسان فى حين لا تهتم الثانية إلا بالعدل فقط، فبينما يحثنا القانون على أداء ما علينا من دين فى ميعاده المحدد، يحث القانون الأخلاقى الدائن على النظر بعين العطف و الرحمة فى حال المدين، فإنه إذا كان من العدل أن يسترد ماله من ميعاده، إلا أن من الإحساس و التعاطف إمهال مدينه إن كان معسرا أو إعفائه نهائيا إن كان عاجزا عن

[٥٧] ص ١٥٨ من مبادئ الفقه الإسلامى، د. زكريا إبراهيم.

الوفاء[58]، (و إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة و أن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون)[59].

الجـــــزاء

مشروعية الجزاء

خلق الله الإنسان و أودع فيه غرائز و شهوات و زوده بالعقل و الروح، و الإنسان فى صراع بين وساوس نفسه و تطلعات روحه، و بين سمو ضميره و هدى شيطانه، تتجاذبه رغبات جسد جامح تحاول أن تهبط به فى مستنقع الرذيلة، كما تتجاذبه نقاء روح تحلق به فى عالم المثل و الفضيلة لتصل به إلى قمة الطهر و الصفاء، و مع هذا الصراع فإن الإنسان فى لحظة من لحظات حياته و تحت ظروف معينة قد يهوى بنفسه إلى الحضيض أو يرتفع بها إلى القمة السامقة، فكان لا بد من مثوبة أو عقاب يتناسب مع أعمال الإنسان، إن حيرا فخير و إن شرا فشر، و هذه المثوبة أو العقوبة هى ما يسمى بالجزاء.

---

[58] ص ٣٠-٣١ د. حمدى حيا الله: الأخلاق و معيارها بين الوضعية و الدين، الطبعة الأولى.

[59] سورة البقرة/٢٨٠.

تعريف الجزاء

عرف علماء الأخلاق الجزاء بأنه مثوبة على عمل الخير أو عقوبة على عمل الشر. إن الجزاء هو النتيجة المترتبة على المسئولية و ينبغى أن يكون خيرا لمن أحسن و شرا لمن أساء. فكل قانون صالح يجب أن يكون بإثابة المطيع و عقاب المخالف، و لو جرد الفعل من الثواب و العقاب فقد معناه و مبرر وجوده. هذا و الجزاء أربعة أنواع:

الجزاء الطبيعى: و يشمل فيما يجره انتهاك القوانين الطبيعية من الألم للجسم أو العقل أو ما يترتب على مراعاتها من استمتاع بالسعادة و الصحة و ذلك مثل من يتناول الأطعمة الفاسدة و من يفرط فى السهر و الترف أو يستسلم للانتقام أو أن يذهب للأماكن الموبوءة بالأمراض و القاذورات من غير أن يتحفظ أو يحتاط و دون ان يحافظ على كيانه المادى.

الجزاء الاجتماعى: و يتمثل هذا بالعقاب بالسجن أو التغريم أو الحرمان من الامتيازات الاجتماعية، كما يتمثل فى الضغوط الاجتماعية و العقوبات الأدبية التى يلاقيها المرء عندما يخرج من عادات المجتمع و تقاليده و أعرافه.

الجزاء الدينى: و يتمثل فيما أعده الله من نعيم الجنة لمن أطاعه و عذاب النار لمن عصاه.

<u>الجزاء الخلقي</u>: و هو ما نشعر به من راحة الضمير و غبطه عند عمل الخير، و قلقه عند ارتكاب الشر، و من المعروف أن تأنيب الضمير أشد ألما و أعظم قسوة من أية عقوبة أخرى، و حسبما أن نقرأ رواية الجريمة و العقاب للروائي الروسي الكبير "دوستويفسكي" لكي نقف على تعذيب الضمير الذي استولى على نفس بطل الرواية "راسكنولنكوف" بعد قتله للمرابية العجوز فلم يعد هذا المجرم التعس يستطيع التوجه إلى أي مكان دون أن تلاحقه إشباع الجريمة، و لم يعد في وسعه أن يغمض عينيه دون أن تستبد به هواجس الجريمة و كابوس العدالة التي تطارده في صحوه و منامه.

و إذا كان للضمير هذه السطوة على الإنسان و على السلطة التي تتحكم في سعادته أو شقائه، و في راحته أو اضطرابه، و في فرحه أو حزنه. فما هو الضمير إذن؟ هذا هو ما سوف نتكلم عنه في الصفحات القادمة.

الضمـــــــــير

علمنا أن الأخلاق لا تبحث فيما يصدر عن الإنسان من أفعال طبيعية أو غريزية أو فيا يحققه الموجود البشرى من نشاط تلقائى بيولوجى أى حيوى، بل هى تقتصر دراستها على الأفعال الصادرة تعقل و روية و إرادة و لما كان الضمير هو فى صحيحه ضرب من الرقابة على نشاطها العادى التلقائى، فقد رأى فلاسفة الأخلاق أن يجعلوا من دراسة الضمير محور الارتكاز فى كل بحث أخلاقى نظرى.

تعريف الضمير

الضمير هو ذلك الصوت الذى ينبعث من داخل الإنسان فيحكم على أعماله بالخير او الشر، أو هو ذلك النور الذى يوجه الإنسان إلى طريق الرشاد أو هو كما يرى بعض الكاتبين مركز التوجيه فى الإنسان أو هو محكمة كبرى ترجع إليها كل أعمال الإنسان الخارجية هذه المحكمة قائمة فى النفس الإنسانية يشعر بها كل إنسان فى نفسه صغير أكان أو كبير، عالما أو جاهلا، ذكيا أو غبيا. هذا و قد عرف جان جاك رسو الضمير بقوله: إنه مبدأ فطرى للعدالة أو الفضيلة نحكم بالاطمئنان إليه على أفعالنا و أفعال أشباهنا من الناس بأنها خيرة أو شريرة.

و معنى هذا أن الضمير غريزة إلهية أو صوت سماوى خالد أو مرشد أكيد لموجود جاهل قصير النظر أو كان عاقلا حرا. أو هو قاض معصوم من الخطأ يحكم على الخير و الشر و يجعل من الإنسان شبيها بالملائكة. هذه الغريزة الفطرية، أو هذه البصيرة يعرف الإنسان طريق الخير و الشر هى

"الضمير" و هذا الضمير يلـزم الإنسـان منـذ ولادتـه، و هـو خـيرا دائمـا و هـو الوسيلة الوحيدة للهداية فى الطبيعة الإنسانية.

هكذا يقرر "رسو" و يقرر معه "تانت" أن (الضمير هاد و موثوق بـه و معصـوم من الخطأ) [٦٠]

حقيقة الضمير

اختلفت الآراء حول حقيقة الضمير و أهم هذه الآراء ما يلى:

أولا: يرى جان جاك رسو و من معـه بأن الإنسان يولد و هـو مزود بالضمـير فهو فطرى فى النفـس البشرية و ليس مكتسبا مـن البيئة الاجتماعيـة و ليس هنـاك أوفـى صلة بين هـذه الحاسـة الفطرية و بين البيئة التـى يعيش فيها الإنسان، و يقرر رسـو و مـن معـه أن الحيوانات مزودة بهذه الغريزة "الضمير" فتجد الهـرة تنقض علـى شـىء من الطعام أمامك و تسرع هاربة، بينما إذا أعطيتها شىء من هذا الطعام فإنها تأكله أمامك دون هـروب، فـالذى جعلها تهرب فـى الحالـة الأولى يـدل علـى أنـهـا تملك غريزة فطرية بها أحست أنـها قد فعلت ذنبا و أتـت جرمـا، و إذا كان الحيوان مزودا بهذه الغريزة فإن الإنسان-فيمـا يرى رسـو-يكـون أولى من الحيوان فى هذا و أنه بهذه الغريزة يفرق بـين الخير و الشر. و لا شك أن هذا الرأى انحراف عـن المنهج القويم فلـو كان الضمـير فطرى ما كـان هنـاك حاجة إلى التـهذيب و التعليم و التوبـة و التقويم لأن القـوة المهذبـة موجـودة فـى النفـس-علـى هـذا الـرأى-توجـه

---

[٦٠] أنظر المشكلة الأخلاقية (أندرية كريسون) ترجمة الدكتور/عبد الحليـم محمـود و الأستاذ أبو بكر ذكرى.

الإنسان إلى الخير كما تمنعه من الشر، و الواقع خلاف ذلك فإن الضمائر تختلف باختلاف الناس و ذلك حسب الظروف و الأحوال بل قد تختلف عند الشخص نفسه، و نحن نعلم أن ضمير العربى كان لا يرى غضاضة أن ينكر خالق هذا الكون جل جلاله.

ثانيا: ذهب "أوجست كونت" و "دور كليم" و "جون لوك" و غيرهم إلى عكس ما ذهب إليه رسو و أتباعه فقالوا: إن الضمير مكتسب من البيئة و من التربية و التعليم و الإنسان-فى رأيهم-يولد و ليس عنده ما يسمى بالضمير و يعلق هؤلاء أهمية كبرى على التربية و التعليم فيجعلون منهما قوتين كبيرتين تتحكمان فى مصير الفرد كله. و هذا الرأى قد يخفى-فى نهاية الأمر-إلى اتخاذ موقف الشك أو الارتياب فى الضمير، ما دام الشعور الخلقى "الضمير" سيكون مجرد حصيلة أو إنتاج قابل للتعديل باستمرار تحت تأثير بعض العلل الخارجية-و من المعروف أن التربية-لها قيمتها و خطرها و لكنها مع ذلك لا تصنع المعجزات فلا تستطيع أن تخلق شيئا من العدم و لا بد أن تستند بالضرورة إلى أساس أو أسس فطرية تبنى عليها شتى الطرق المكتسبة، كما أنه ليس فى إمكان القوانين الصالحة وحدها أن تخلق دائما العادات الطيبة[٦١].

ثالثا: ذهب فريق من الفلاسفة على رأسهم "كليكليس السوفسطائى" قديما و تبعه "نتشه" حديثا إلى إنكار كل شىء عن الضمير، فالضمير عندهم

---

[٦١] أنظر ص ٩٥، مبادئ الفلسفة و الأخلاق د. زكريا إبراهيم.

ليس فطريا كما أنه ليس مكتسبا بل يرونه من أكبر معوقات التقدم الحضارى، و قالوا عنه أنه أكذوبة كبرى ينبغى القضاء عليها و هى خدعة من الضعفاء ليقيدوا بها سلطة الأقوياء، و لقد أنكر هذا الفريق كل الفضائل التى تعارفت عليها الإنسانية فليس هناك-عندهم-ما يسمى بالرحمة أو العدل أو العفو أو الإحسان، و ينادون بحذف هذه الألفاظ من قاموس الإنسانية و يذهبون إلى تمجيد القوة و الحروب. و لا شك أن هذا الرأى ليس فى حاجة إلى تفنيد فهو ظاهر البطلان.

رابعا: رأى الإسلام فى حقيقة الضمير، رأينا موقف الباحثين من الضمير و موقف من ينكر هذا الضمير و ينبغى أن نعلم رأى الإسلام من هذا كله، فما رأى الإسلام فى الضمير؟

إن الإسلام يقرر الحقيقة —فى هذا المعترك الفكرى- بين فلاسفة العالم و بين أن الضمير هو استعداد فطرى عند الإنسان فليس قوة فطرية مغروزة فى الإنسان يولد بها مكتملة، بل هو استعداد فطرى يتبلور و يظهر أثره بالتربية و التعليم و التهذيب. الإسلام لم ينكر الضمير بل يعترف به و إن كان ينكر عصمته فيقول الله جل جلاله فى كتابه العزيز (و لقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه و نحن أقرب إليه من حبل الوريد) و يقول تعالى (و إذا قلتم فاعدلوا و لو كان ذا قربى) و يقول سبحانه (و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم).

فأنت ترى على ضوء هذه الآيات أن الوسوسة و النزغ و العمل و الأمر به كل هذه الأشياء من طبيعة عمل الضمير[٦٢].

---

[٦٢] أنظر ص ٢٣٧ :تأملات فى فلسفة الأخلاق: منصور رجب.

المقاييس الخلقية

المقياس الخلقي: هو الأمر الذى يحتكم إليه لتقدير قيمة الأعمال الأخلاقية، و معرفة هذا القياس من أهم مباحث علم الأخلاق الذى يبحث فى أعمال الناس من حيث خيرها و شرها.

و إذا كان عمل المقاييس المادية من مهمة العلوم الطبيعية، و هى لا تستدعى خلافا يذكر، إذ تواضع الناس جميعا على الأخذ بها، فإن المقاييس الأدبية-لأنها ليست مادية أو ملموسة-أعنى أنها معايير معنوية مجردة-أختلف الناس حولها، و على الأخص مدلولاتها التطبيقية و سبل تحقيقها. فجمهور الفلاسفة و إن كانوا على اتفاق فى أن أظهر القيم و المعايير التى ينشد الإنسان كماله فى تحقيقها هى: الحق و الخير و الجمال فإنه عند تكييف تلك القيم أو تحديد مدلولاتها كأمور صالحة للتطبيق فى مجال الفكر و الفن و السلوك أعنى عند رسم الخطط و المناهج و الوسائل لتطبيق هذه القيم، كواقع حى فى المجلات المختلفة لحياة الإنسان، تجدهم ليس على كلمة واحدة فى هذا السبيل.

و لأهمية المقياس الخلقى و أثره البالغ فى حياة الإنسان و مصيره فإن الفكر الإنسانى منذ نشأته و حتى الآن فى جدل دائم حول طبيعة هذا المعيار و مصدره لأنه أساس المشكلة الخلقية و جوهرها و لأن الغاية من دراسة علم الأخلاق هى الاهتداء إلى مقياس أدبى و قاعدة عامة لنقيس بها أعمالنا. و لما كانت هذه المقاييس نتيجة لاجتهادات فردية فقد

اختلفت-كما قلنا-حسب اختلاف هذه الاجتهادات و إليكم أظهر المقاييس:

العرف و المقياس الأخلاقي

لكل أمة عرفها و نظمها و عاداتها التى تترسم الخير فى اتباعها و تربى أطفالها على الخضوع لها، و تؤدبهم أو تعاقبهم على مخالفتها، و لذا فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاقى. فما وافق العرف كان خيرا و ما خالفه كان شرا، و ما سكت العرف عنه كان الناس فيه مخيريين بين أن يفعلوه أو يتركوه.

و لا شك أن العرف قوة من القوى التى يقوم عليها النظام الاجتماعى كقوة العقيدة و قوة الرأى و قوة العمل و غير ذلك من القوى الاجتماعية. و هذا هو القرآن الكريم يحكى قوة هذا العرف فيقول (إنا وجدنا ءاباءنا على أمة و إنا على ءاثارهم مقتدون)[63] و الآية التالية لهذه الآية نفسها تبين فى جلاء سلطان العرف على النفوس مهما جيئت بأهدى منه (قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه ءاباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون)[64].

و إننا لنرى أثر هذه القوة حتى عبد أكبر الناس استقلالا و أشدهم اطلاقا فى الفكر حين يخضع للعرف الجارى فى روابط الناس الاجتماعية و هذا

---

[63] سورة الزخرف/٢٣.

[64] سورة الزخرف/٢٤.

هو ما دعا "عوستاف لوبون" إلى أن يقول العرف المألوف في علاقات الناس بعضهم مع بعض فوق إرادة الإنسان[٦٥].

و مع هذا كله فإننا نرى أن الذين جعلوا العرف الاجتماعي مقياسا فقد أخطئوا فهو مقياس مضطرب مختل. لأن العرف لا إثبات له فهو يتغير باختلاف البيئة و العصر، و لأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل و لا يرتضيه الخير، فقد كان شرب الخمر عرف عند العرب في الجاهلية فحرمها الإسلام، و كانت الغارات عرف عندهم فحظرها الإسلام، و كان الاسترقاق عرفا عند الأمم القديمة، فلما جاء الإسلام ضيق روافد الرق و فتح الطرق لتحريرهم.

و كانت السرقة مباحة في إسبرطة لتدريب الشباب على الحيلة و الخداع في الحرب على شريطة ألا يراهم أحد، فكانوا يدخلون الحدائق على حين غفلة من أهلها يأخذون-سرقة-منها ما شاءوا، فإذا ما تنبه لهم أحد و قبضوا عليهم عوقبوا أشد العقاب لا لأنهم سرقوا بل لأنهم لم يأخذوا حذرهم، لذلك كان الغلمان إذا قدموا على سرقة بالغوا في التحرز و الاحتيال حتى لقد وصل الأمر بأحدهم أن يسرق ثعلبا صغيرا، فحمله و مضى به و لما رأى الناس على مقربة منه وضعه تحت ثوبه ليخفيه عن

---

[٦٥] أنظر جوامع الكلم ص ٦٥ "عوستاف لوبون" الترجمة العربية.

عيونهم، فأعمل الثعلب أنيابه و مخالبه في بطنه فمزق أحشائه، و المسكين يمضي في طريقه صابرا يفضل الموت على الفضيحة و العار[٦٦].

ثم إن الاستمساك بالعرف جمود و تحجر و تعويق عن التقدم و التطور و تقبل الآراء الجديدة و هو إلى هذا كله معاداة للإصلاح و المصلحين[٦٧].

السعادة الشخصية و المقياس الخلق

لقد ذهب فريق من الأخلاقيين إلى أن السعادة الشخصية (اللذة) و الخلو من الألم هي أساس مقياس الأخلاق و هي محور الأخلاق، و العمل- عندهم-يكون خيرا بقدر ما يحقق من لذة و يكون شرا بقدر ما يسبب من ألم.

و كان رأي فلاسفة اليونان الأقدمين أن الإنسان لا يعرف سوى خير واحد هو اللذة، و شر واحد هو الألم، و اللذة فيما يرى الفيلسوف اليوناني أرستس[٦٨] هي صوت الطبيعة فلا موجب للحياء أو الخجل ما دامت القيود و الحدود أنها هي من وضع العرف.

---

[٦٦] أنظر ص ٢٧ من تاريخ التربية للأستاذ مصطفى أمين، مطبعة المعارف عام ١٩٢٥.

[٦٧] الدكتور الحوفي ص ١٣-١٤ من أخلاق النبي، الكتاب الأربعون-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

[٦٨] عاش هذا الفيلسوف في القرن الرابع قبل الميلاد.

حقا إن التعلق باللذات قد يكون أحيانا مصدر قلق و ألم، و لكن فيلسوف اللذة لا يريد أن يفكر في المستقبل، لأن التفكير في المستقبل هو مبعث الشقاء و مصدر الهموم، بل هو يريد أن يقتنص اللذة الحاضرة عالما أنه ليس للإنسان سوى الساعة التي هي فيها؟ و ما دامت الغريزة هي المحرك الأول لأفعال الإنسان (مثله في ذلك كمثل الطفل و الحيوان) فإن معيار اللذة و الألم هو المعيار الأوحد لقياس خيرية الأفعال و شريتها[٦٩].

و قد تابع "ابيقور" مذهب اللذة بل و كان من أكبر الدعاة إليه، و كان يرى أن اللذة الشخصية هي غاية الإنسان و ليس في الحياة خير سواها و ليس بها شر إلا الألم، و نفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية، لأن قيمتها في السعادة التي تصحبها و ذهب إلى القول بضرورة التمييز بين أنواع اللذات و الآلام و الأخذ باللذات التي من شأنها أن تحدث أقل ضرر و تجنب الآلام التي من شأنها أن تجلب الضرر. هذا و قد أنتهت الأخلاق عند ابيقور إلى:

١- الأخذ باللذة التي لا يعقبها أي ألم.

٢- تجنب الألم الذي لا يؤدي أية لذة:

٣- تجنب اللذات التي قد تحرم من لذات أكبر منها أو تجلب من الألم أكثر مما تجلبه اللذة.

٤- قبول الألم الذي قد يعقبه لذة أو الذي يخلص من ألم أشد منه.

و هكذا ينتهي ابيقور إلى نوع من حساب اللذات و من قواعد الأخلاق المعتادة، و كانت غايته من الأخلاق هي الوصول إلى طمأنينة النفس إلى

---

[٦٩] أنظر ص ١٠٦ أحمد أمين، كتاب الأخلاق، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٣ م.

السعادة. و الحق أن فى هذا المذهب مجافاة للصواب فى كثير من الأعمال و الأحوال، فإن الأخيار من الناس يحتملون ألوانا من العذاب و الألم ليحققوا الخير لغيرهم، و الأباء و الأمهات كثيرا ما يشقون، و كثيرا ما يطرحون لذتهم ليسعدوا أبنائهم.

و أن المجاهدين و الشجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمائهم و أرواحهم و هم لا يتوقون إلى شيء غير إعلاء كلمة الله و حماية الأوطان، بل إنهم ليقدمون على هول المعارك معتزمين على الاستشهاد فى سبيل الله و فى سبيل الوطن، فأين هى السعادة الشخصية أو اللذة التى قام عليها هذا المذهب، كما أنه ليس من الضرورى أن تكون كل لذة خيرا و كل ألم شرا، فإن بعض اللذات شرور كلذة تعاطى الخمور أو الإدمان فى المخدرات، كما أن بعض الآلام قد تنطوى على شيء من الخير كالألم الناشئ عند تأنيب الضمير، أو تحمل الجزاء العادل أو تناول بعض الأدوية.

و ليست كل اللذات حسية، فإن هناك نوعا آخر من اللذات قد يصح تسميته باسم "اللذات العليا" كالنشاط العقلى و حب الجمال و تذوق الأعمال الفنية و أداء الواجب، و العبادات الروحية و استجلاء النور الإلهى...إلى أخر تلك اللذات الإنسانية الرفيعة التى طالما أفاض فى مدحها الفلاسفة و رجال الأخلاق و المصلحين.

إن اللذات بطبيعتها سريعة الزوال فهى لا تكاد تبدأ حتى تنتهى لكى تخلف وراءها أحيانا مشاعر أليمة متعددة كالشعور بالندم أو الملل أو الاشمئزاز، و إذا كان كثير من علماء الأخلاق قد أفاضوا فى ذم فلسفة

اللذة فذلك لأنهم قد لاحظوا أن الضمير المرهف يجذع في العادة من حياة السهولة و إشباع الأهواء و الاستسلام للشهوات، و ربما كان أخطر ما في اللذة أنها تهدد الإرادة باعتياد السهولة فتفقدها القدرة على المقاومة و تجعل منها ضحية لدكتاتورية الجسد، و قد روى عن نبي الإسلام صلى الله عليه و سلم أنه قال (طاعة الشهوة داء و عصيانها دواء) و قال بعض علماء الأخلاق من المسلمين: ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، و ركب البهائم من شهوة بلا عقل، و ركب بني آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، و من غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم.

و ليس معنى هذا أن الشهوة كريهة في حد ذاتها، و إنما الكريه هو الانقياد لها و الاكتفاء بها و الارتماء في أحضانها[٧٠].

السعادة العامة و المقياس الخلقي

إذا كان ابيقور و من يدور في فلكه قد أسس مذهبه الأخلاقي على السعادة الفردية، فإن آخرين قد أسسوا مذهبهم على المصلحة العامة، فذهبوا إلى أن الواجب على الإنسان تحقيق أكبر قسط من السعادة للناس، فليست السعادة أو اللذة مقصورة على العامل وحده كما دعى ابيقور بل أنها تشمل كل من يتصلون بالعمل أو يتصل بهم العمل، و القاعدة العامة لهذا المذهب و القياس الخلقي عند القائلين به يقوم على أن الغاية في جميع

---

[٧٠] ص ١٠٧-١٠٨، مبادئ الفلسفة و الأخلاق، د. زكريا إبراهيم.

الأعمال الإنسانية يجب أن تتجه نحو إحراز أكبر نصيب من السعادة لبني الإنسان عامة أو لأكبر عدد منهم على الأقل.

و من أكبر الدعاة لهذا المذهب "بنتام" و "جون سيتوارت مل" و قد ربط بنتام بين خير الفرد و خير الجماعة فقال: (إن البحث عن لذة الآخرين إنما هي خير وسيلة تعين الفرد نفسه على الوصول إلى أكبر قسط ممكن من اللذة)، و معنى ذلك أن المنفعة الشخصية وثيقة الصلة بالمنفعة العامة ما دام الفرد عاجزا عن الوصول إلى ما هو ضروري لحياته دون الاجتماع بالآخرين و التضامن معهم، و ليس الإيثار سوى تضحية الفرد بجانب من لذته في سبيل الحصول على قدر أكبر من اللذة لنفسه عن طريق العمل على خدمة مصالح الآخرين.

هذا و قد واقف "سيتوارت مل" سلفه "بنتام" على القول بأن الفعل الخلقي لا يكون خيرا إلا متى حقق أعظم قدر ممكن من اللذة لأكبر عدد ممكن من الناس، و لكنه رأى أنه لا بد من مراعاة نوع اللذات بدلا من الاقتصار على مراعاة مقدارها فقط.

و الواقع أن مذهب المنفعة عند كل من بنتام و سيتوارت لا يخرج عن كونه صورة منقحة أو تصحيحا عقليا لفلسفة اللذة فإن حساب اللذات (مثلا) إنما يعني تأخير موعد استحقاق اللذة من أجل إلى أجل أخر، و يكلف فاعل الخير أو الشر أن يقوم بحساب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كلئن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل سواء أكان من الناس أو من الحيوان و ليس هذا بمستطاع.

ثم إن السعادة العامة ليس مقياسا محددا ثابتا، لأن المحرر هو اللذة و الألم و هما يختلفان باختلاف الأشخاص و باختلاف الملابسات، فقد يرى شخص في عمل لذة، عل حين إن آخر يرى فيه ألما، و قد يرى شخص في عمل لذة كبيرة بينما يرى آخر فيه لذة صغيرة، و قد يرى الشخص الواحد في عمل لذة في وقت معين ثم يرى فيه ألما في وقت آخر.

إن هذا المذهب ينطوي على إغفال صريح لعنصر هام من عناصر الشعور الخلقي ألا و هو الطابع المثالي فليست الأخلاق مجرد حساب نفعي بل هي سعي وراء المثل الأعلى، بل إن السعادة العامة التي يقوم بها هذا المذهب هي مقياس لإثبات له و لا أمان فيه لأن الناس ينظرون إلى مصلحة المجتمع نظرات متباينة، و هذه النظرات المتباينة تختلف من عصر إلى عصر، بل تختلف في العصر الواحد من بيئة إلى بيئة.

لقد أعتمد أصحاب هذا المذهب على مفاهيم خاوية لمفهوم السعادة و مفهوم المنفعة و هذا ما لاحظه الفيلسوف الألماني "كانت" حينما قال (إن منهوم السعادة مفهوم غير محدد فليس بوسعنا أن نعرف الخير و الشر بالاستناد إليه).

و لقد ناقش "أرسطو" من قبل مذهب السعادة العامة فأيد بعضه و فند بعضه، و جاء في تفنيده أنه إذا كانت الكائنات العاقلة و غير العاقلة ترغب في اللذة فماذا تكون قيمة هذا الرأي؟ و قال: إن الخير شيء تلقائي و محدود، على حين أن اللذة غير محدودة لأنها قابلة للأقل و للأكثر و إن

بعض اللذات غير حميد فلا يصح أن تكون اللذة العامة أو السعادة العامة مقياس الفضيلة، بل يجب أن تكون الفضيلة هي مقياس اللذات العامة[٧١].

مقياس الأخلاق التطورية

هناك اتجاه في الأخلاق نادى به و دعمه "سبنسر" و قد اعتنقه في القرن العشرين أمثال "تلكسي" و "ووف نجتون" و "وهلت" و أهم مبادئ ذلك الاتجاه ما يلي:

١- السلوك الأخلاقي يجب أن يكون وظيفة للبيئة الطبيعية التي تحيط بالفرد و يجب لذلك أن يتكيف بها، و لذا فالقياس الأخلاقي يتمثل تماما في التدرج أو التطور البيولوجي أو العضوي فكل ما يؤدي إلى ترقيته أو كماله يعتبر خيرا و كل ما يناوئه أو يقف في سبيله يعتبر شرا.

٢- إن الخواطر و الأفكار الأخلاقية إنما يصطنعها الإنسان لتخدم نفس الأهداف التي توجد بين حقائق الطبيعة ذاتها، إن المجتمع نفسه ليس إلا أعلى صورة للترابط الطبيعي بين الأعضاء البدنية للأجناس المتماثلة.

و هذا المذهب منظور على مذهب النشوء و الارتقاء الطبيعي الذي قال به "دارون" و هو يحمل في ثناياه الأفكار على الأديان و ذلك بتأكيده على تطور الكائنات بفعل قانون الطبيعة الذي لم يعترف بفكرة الخلق التي قررتها الأديان. و لقد كان من غلو أتباع هذا الاتجاه مثل "هلت" ان نادى

---

[٧١] أنظر ص ٢٨-٢٩ من مدخل إلى الأخلاق، د. محمد كمال جعفر. و ص ٩٦ من الأخلاق النظرية للأستاذ أبي بكر زكري.

بانطلاق القوى البدنية و الحيوانية فى الإنسان و تحررها من كل القيود الاجتماعية.

و يمكننا أن نعلق على هذا الاتجاه أنه مهما دافع أصحابه فهو يبدو عدائى النغمة للمجتمع ككل، و أنه يهوى بالإنسان إلى ما دون مستواه الذى كتب له، و هو بجانب ذلك يحيل السؤال الأخلاقى إلى مجرد سؤال فى البيولوجيا أو فى علم الأحياء و هو لذلك رجعى و غير علمى و لذلك فقد كان هذا الاتجاه عرضة لنقد كثير من مؤرخى الأخلاق الذين يرون أن أكثر ما جاء فى نظرية دارون المشيد عليها هذا المذهب إنما هى دعاوى نظرية لم تقم عليها الأدلة و هذا يقلل من قيمة هذا المذهب من الناحية النظرية كما أن سبنسر قد تناسى أن القواعد الأخلاقية ليست قوانين طبيعية اللهم إلا إذا رفعنا عن الأخلاق كل طابع مثالى.

و أخيرا فإن الفلاسفة التطوريين حين يزعمون أن الأخلاق هى مجرد مظهر من مظاهر الارتقاء الحيوى، و أن تطور الجماعة قد أقترن بضرب من الترقى الخلقى الذى انتقل عن طريق الاكتساب و الوراثة، إنما يغفلون العنصر الروحى أو العامل الإنسانى فى صميم الحياة الأخلاقية.

الخير و المجتمع و المقياس الخلقي

إذا كان بعض الفلاسفة قد ربطوا مفهوم الخير بمفاهيم أخرى عديدة كاللذة أو السعادة أو المنفعة العامة فإن دعاة المدرسة الاجتماعية و على رأسهم "دور كليم" يربطون مفهوم الخير بسلطة أخلاقية و قعية يطلقون عليها اسم "المجتمع" فالمقياس الخلقي عندهم هو الخير الذي يأمرنا به العقل الجمعي، و الشر هو ما حرمه علينا العقل الجمعي. و ليس المجتمع رقعة من الأرض نعيش فيها، بل هو مجموعة من المثل العليا المشتركة التي يحيا عليها أهل تراث حضاري واحد.

و مع أن الإنسان مجود أخلاقي إلا أنه يعيش في جماعة، فلو أننا نجحنا في القضاء على الحياة الاجتماعية، لقضينا في الوقت نفسه على الحياة الحلقية لأنها عندئذ ستكون غير ذات موضوعن و معنى هذا أنه لا أخلاق بدون مجتمع لأن المجتمع هو الذي يحدد لنا الخير و الشر، و هو الذي يلزمنا بأراء بعض الأفعال و الامتناع عن غيرها، و هو الذي يجعل لنشاطنا الخلقي غاية أو غايات يهدف إليها.

و إذن فالحياة الخلقية-فيما يرى دور كليم-تبدأ حيث يكون التعلق بالجماعة كائنا ما كان نوعها، يستوى في ذلك أن تكون بسيطة أو معقدة، ضيقة أو واسعة.

و يخلص أهل المدرسة الاجتماعية-بعد عرض طويل لمذهبهم-إلى القول بأنه لا يمكن فهم الخير أو الشر إلا في نطاق الحياة الاجتماعية لأنه-

في رأيهم-لا أخلاق بدون مجتمع. بيد أن ربط مفهومي "الخير و الشر" بمفهوم "المجتمع" قد يكون من شأنه الانحدار بالأخلاق إلى مستوى المواصفات الاجتماعية و العادات الشكلية و الأساليب الآلية المعتدلة، و فضلا عن هذا فإننا حين نكرر على مسامع الفرد بأنه صنيعة المجتمع و أن ما يكون صميم شخصيته إنما هي تلك التأثيرات التي فرضتها عليه الجماعة، فإننا قد نضيف في نفسه الشعور بالحرية و المسئولية و بالتالي قد نبعث في قلبه روح التواكل و المسايرة و الاتباع بدلا من أن نحفزه إلى الابتكار و الإنتاج و الإبداع.

و الحق أن الحياة الخلقية الصحيحة تستلزم جهدا متجددا دائما يبحث بعمل المرء عقله و وجدانه لمواجهة كل مشكلة تعرض عليه حتى يكتشف الحال الملائم لها[٧٢].

القوة و المقياس الخلقي

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة مثل "هوبز" و "نيتشه" و رأوا أن للأقوياء الأعلياء خلقا لا يليق لها العبيد، و أن للضعفاء المسترقين أخلاقا لا تليق بالأقوياء، و هم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها إلى القوة، فالشجاعة و البطولة و العظمة و التفوق و أشباهها مظاهر للقوة و الأخلاق التي لا تبدو في مظاهر القوة راجعة إليها، فالصبر محمود، لأن القوي هو الذي يحتمل الشدة و يطيق المكروه و يثبت أمام البلاء، و لا يتخاذل و لا يجزع لأن الجزع و التخاذل من أخلاق الضعفاء.

---

[٧٢] ص ١٢١-١٢٢ مبادئ الفلسفة و الأخلاق، د. زكريا إبراهيم.

و الرحمة حميدة لأنها مظهر من مظاهر قوة الشخص الذى يرحم من هو أضعف منه و برهان على استعلائه على أن يلقى الضعيف بما يلاقى به الأنداد من الأقوياء.

و الكرم ممدوح لأنه يمثل المقدرة على مقاومة البخل و هو فى الوقت نفسه تفضل على المحتاج الذى لم تبلغ به قوته درجة الكريم.

هذا و إننا نرى أن هذا المذهب معيب و منحرف، يقسم البشر طبقتين. طبقة الأقوياء أو الأحرار و طبقة الضعفاء أو العبيد، و يفصل بينهما فصلا لا تقره الإنسانية، كما يقيم بين الأقوياء و الضعفاء سورا لا ينفذ منه فلا تراحم و لا تواد و لا تعاطف بل هناك صراع رهيب بين الأقوياء و بين الضعفاء و العداوة مستحكمة بينهم، يبطش القوى بالضعيف و يخضع الضعيف بالقوى و فى هذا المعترك الإنسانى يرتفع الأقوياء على هامات الضعفاء.

و ليس من شك فى أن بلايا استعمار الأقوياء للضعفاء و استئثارهم بخيرات بلادهم و استهانتهم بحياة الملايين منهم و سلب خيراتهم و نهب مواردهم، و السيطرة على مواردهم راجعة إلى هذا المذهب البغيض مذهب القوة الغاشمة[٧٣].

و بعد، فإذا كانت السعادة الشخصية أو السعادة العامة لا تصلح لأن نجعل منها مقياسا للأخلاق، كما أن العرف لا يصلح أن يكون كذلك-مقياسا

---

[٧٣] أنظر ص ٢٢-٢٣، نم أخلاق النبى، د. الحوفى

للأخلاق–و إن ذهبنا إلى العقل الجمعى أو القوة فإننا لم نجد شىء منهما يصلح كى نجعله هذا المقياس الذى ينشده فلاسفة الأخلاق و رواد الإنسانية، فما المقياس الذى ينبغى أن تقاس به أعمال الناس، و الذى يسلم به كل الفلاسفة. هل نجد فى الأديان هذا المقياس المنشود؟ و لكن بعض الأديان قد حرف و بعض الأديان قد دخل التغيير و التبديل و الزيادة و النقصان.

لقد حرفت النصرانية كما حرفت اليهودية من قبل فلم يبق غير الإسلام دين الله الخالد الذى حفظه رب العرش العظيم من كل تبديل أو تحريف أو تغيير ذلك عندما تعهد بحفظ القرآن الكريم (إنا نزلنا الذكر و إنا له لحافظون).

أجل لقد حفظ الله الإسلام لأنه الدين الذى أختتم به سلسلة الوحى و جمع فيه كل ما جاءت به كل الأديان، و ما يتمناه المصلحين فى كل زمان و مكان.

ترى هل نجد فى الإسلام هذا المقياس التى أجهدت الإنسانية نفسها فى البحث عنه، و كلما وضعت يدها على مذهب ظنت أنها قد عثرت على بغيتها فإذا به كسراب يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، مرة أخرى هل نجد ذلك المقياس فى الإسلام؟.

مقاس الأخلاق في الإسلام

لقد ضلت البشرية الطريق عندما انحرفت عن منهج ربه القويم، فأخذت تبحث عن منبع للأخلاق تسير عليه و تتخذه هاديا في تقويم الخير و الشر، و قد تبين أن تلك المنابع لم تخلو من شوائب و كدرة و أن ماءها الآسي قد سبب مرضا خطيرا للبشرية مازالت تبحث عن علاج لها إلى اليوم، و من هنا ينبغي أن نوجه وجوهنا إلى ينبوع آخر، ينبوع ثر لا ينضب متدفق عذب لا تشوبه شائبة، مسترسل لا يتوقف، سليم من العيوب و النقائص على تعاقب الزمان و الأجيال، ينبوع يتصل إلى السماء....إنه الإسلام الذى يهدى للتي هي أقوم و يأخذ بيد الإنسانية إلى طريق الخير و الرشاد.

الإيمان هو المقياس المنشود

مما لا شك فيه أن الدين هو المنبع الطبيعي للأخلاق، و أن الإيمان هو أساس كل دين، الإيمان بالله جل جلاله و ما جاء من عنده و ما أمر به و حث عليه، فالإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسوله و اليوم الآخر هو المقياس، و إذا أمن الإنسان بربه فإنه يؤمن بأن الله سبحانه و تعالى معه دائما ، معه في السر، و معه في العلانية، معه حين يصبح، و معه حين يمسي، و أنه جل جلاله يعلم خبايانا في ظلمات البر و البحر، و ليس ذلك بعزيز على من يبدأ الخلق ثم يعيده، المقياس أن تؤمن بالله و تشهد أنه يراك (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم)[٧٤].

---

[٧٤] سورة المجادلة/٧.

و من هنا ينبغي أن يكون عمل الإنسان طابعه الأخلاق و قد بينه رسول الله صلى الله عليه و سلم في قوله (أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). إن الإيمان بالله جل جلاله يجعل الأخلاق ميثاقا عاملا يشمل كل أعمال الإنسان (أفمن يعلم أنما أنزل إليك الحق من ربك كمن هو أعمى إنما يتذكر الوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله و لا ينقضون الميثاق. و الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل و يخشون ربهم و يخافون سوء الحساب. و الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم و أقاموا الصلاة و أنفقوا مما رزقناهم سرا و علانية و يدرءون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار)[٧٥].

و الميثاق هو أصلا ميثاق مع الله، تتفرع منه و تتدرج تحته جميع المواثيق (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[٧٦].

و أول الأمانات هي الأمانة المؤداة إلى الله ثم تأتي بعدها جميع الأمانات التي أبرز سياق الآية منها الحكم بين الناس بالعدل. و على هذا الأساس يكون للسياسة أخلاق و للاقتصاد أخلاق، و للاجتماع أخلاق، و للعلم أخلاق، و لكل شيء على الإطلاق أخلاق، و لا يكون هناك شيء واحد في حياة الإنسان بلا أخلاق.

---

[٧٥] سورة الرعد/١٩-٢٢.

[٧٦] سورة النساء/٥٨.

و منشأ الأخلاق ليس هو الغرض من الخارج في صورة أوامر و نواه و زواجر من عند العرف أو العقل الجمعي أو كل ما قال به فلاسفة الأخلاق سواء أكان من داخل الإنسان أم كان من خارجه، و إنما الله سبحانه و تعالى هو الذي يحدد الأخلاق و يبين ما هو الخير و ما هو الشر، ما هو حلال و ما هو حرام، ما هو حسن و ما هو قبيح، و يبين مقياس الأخلاق الذي لا يتغير و لا يختلف باختلاف الزمان و المكان فيسارع المؤمن بالخضوع لهذا المقياس استجابة لأوامر الله و التزاماتها بما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[77].

هذا و من المعروف أن للإنسان طريقين، و أن له القدرة على التمييز و الاختيار بين الطريقين (و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها، قد أفلح من زكاها و قد خاب من دساها)[78].

و من ثم فالقيمة الخلقية لاصقة بأعمال الإنسان بحكم طبيعته، و إنما تختلف القيم باختلاف واضعها، هل هو الله أم هم البشر؟ فإن كانت من عند الله فهذه هي القيم الحقيقية الصالحة، لأنها من عند خالق الإنسان العليم به و الخبير بما يصلح له و ما يصلحه (ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير)[79].

---

[77] سورة الأنفال/٢٤.

[78] سورة الشمس/٧-١٠.

[79] سورة الملك/١٤.

و إن كانت من عند البشر فهى عرضة للأهواء و عرضة للاختلاف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، و تاريخ البشرية نفسه هو الدليل، يستوى فى ذلك أن يكون الجاهليون من الفلاسفة أو من عامة الناس.

و إذا أردنا أن نسترجع تاريخ البشرية فسوف نجد-فى أوروبا أولا ثم فى غيرها ثانيا-البراهين على ما تقول: فقد أقصى الدين عن الحياة أولا و مع إقصاء الدين أقصيت الأخلاق لأنها أصلا مستمدة من الدين.

و أول مجال أزيحت الأخلاق عنه هو مجال السياسة منذ قال "ميكيا فيللى" أن الغاية تبرز الوسيلة، و معناها بصريح العبارة إسقاط الأخلاق من مجال السياسة، و ممارسة السياسة بلا أخلاق.

ثم ازيحت الأخلاق من المجال الاقتصادى-منذ الثورة الصناعية بتحليل الربا-و تحليل الغش و الخداع و الكذب و سرقة أجر الأجير و شغل الناس بتوافه الأشياء من أجل الربح، و تحليل شن الحروب و الاستعمار من أجل إيجاد أسواق لتصريف البضائع.

ثم ازيحت الأخلاق من مجال العلم، فلم يعد هدف المعلم البحث عن الحقيقة المجردة-لله-إنما صارت تصاحبه المصالح و الأهواء و الشهوات و إبعاد اسم الله عمدا من البحث العلمى مع وضع بديل مزيف هو الطبيعة ثم نشر أبحاث كاذبة بصد نشر الإلحاد، و من استخدام ثمار العلم لإفساد الأخلاق.

ثم أزيحت الأخلاق من مجال الفكر، فلم يعد يحس المفكر أنة ملتزم بأمانة معينة هي في أصلها الأمانة المؤداة إلى الله تعالى: و لذا فقد حفلت وسائل الإعلام-في شتى صورها-بكل صنوف التضليل و الكذب- و إفساد العقيدة و الأخلاق.

و أخيرا أفرغت الأخلاق ذاتها من مضمونها حين قيل إنه ليس لها وجود ذاتي إنما هي انعكاس للأوضاع المادية و الاقتصادية و الاجتماعية أو إنها من صنع العقل الجمعي و إنها تتغير على الدوام و لا تثبت على حال. و لقد سقط الإنسان بسقوط الأخلاق [80] و بعد هذا السقوط الرهيب حاول فلاسفة الأخلاق أن ينتشلوا الإنسان من هذا المستنقع الذى هوى إليه فجاءت أقوالهم مضطربة و آراؤهم متناقضة و لم يستطيع أحد منهم إعطاء حل شامل للمشكلة الأخلاقية، و لا أن يضع معيارا يحيط بجوانب الإنسان المختلفة و يساعد على توازنه الروحي و المادى.

و هذا الفشل يعود في الواقع إلى تركيزهم على وجه واحد من حقيقة لإنسان المركبة و اتخاذه معيارا لتحقيق سعادته.و كان هذا هو الخطأ الذى وقع فيه الفلاسفة-أيضا-على امتداد التاريخ الفلسفي و كانت حيرتهم في كل زمان و مكان و ليس لها من سبب سوى اعتماد الإنسان على كفايته الذاتية في سبر غور الحقائق الغيبية و تعميم أحكامه الجزئية على الحقيقة

---

[80] أنظر ص٤٨٦-٤٨٧من مذاهب فكرية معاصرة:محمد قطب دار الشروق طبعة أولى١٩٨٣ ببيروت.

كلها و لو ترك الإنسان هذا كله إلى وحى الله تعالى لاستراح و أرح و لقد أدرك هذه الحقيقة.

حقيقة أن التشريع الأخلاقى و رسم منهاج للخير و الحق كلها أمور جليلة لا يمكن أن يستقل بها أقول أدرك الحقيقة "سانتهلير" الذى يعترف بأنه (لا يمكن) أن تكون القوانين الإنسانية أساسا لقانون الأخلاق لأنها تستمد منه و هو الذى يقضى عليها و يدينها حينما تنحرف عن جادة أوامره الواجبة الاتباع .

فمن أى ناحية نظر إلى علم الأخلاق لم يوجد له من حيث أصله اثر بشرى و أنه ليدير شئون الإنسان و يلى أمره بسبب أنة ليس من علمه [٨١].

و إذا كان "سانتهلير" قد وصل إلى هذه الحقيقة و أعترف بها فينبغى أن نكون معه فى هذا الاعتراف و نسلم بأن التشريع الأخلاقى لا مصدر له سوى الوحى المعصوم و ما جاء به من الإيمان بالله و كل ما يتفرع عن حقيقة هذا الإيمان —ذلك إن الوحى وحده هو الذى يتوجه إلى النفس بأكملها و يقدم إليها زادا متكاملا يتغذى منه القلب و العقل و الجسد بدرجه متساوية فإذا ما ترك الإنسان أنو ار الوحى و اتجه إلى نور العقل المحدود— فانه سوف يسير فى نية لا نهاية له و يجنى ثمرة ذلك تخبطا و شقاء و تعاسة.

---

[٨١] انظر ص١٧ علم الأخلاق إلى نيقوماقوس:ترجمة أحمد لطفى السيد مطبعة دار الكتب المصرية.

نماذج من الأخلاق

في مختلف العصور

العصر اليونانی

سوف نتحدث عن آراء بعض فلاسفة اليونان فی الأخلاق ثم نعطی صورة للأخلاق فی العصر الحديث ثم نعرج علی الإسلام و موقف رجاله من الأخلاق حتی يقف القارئ الكريم علی صور الأخلاق فی شتی العصور و بحكم بنفسه علی الاتجاه السليم الذی ينبغی إن نتمسك به و إن نسير علی قيمه.

و لقد بدأنا بالعصر اليونانی لأن فلاسفة ذلك العصر كانوا أعلی فی البحث العلمی و الفلسفة و أبعد شأوا ممن عاصرهم أو سبقهم من الشعوب. و إنهم جاءوا فی الفلسفة الأدبية بما لم يسبقوا إلی مثله . و إنهم علی حد تعبير صاحب كتاب "دراسات إ سلامية"[٨٢] الذی يقول (و لعل فلاسفة اليونان هم أول من قسم الفلسفة إلی قسمين):

١ – فلسفة نظرية: تبحث عما يجب علمه و اعتقاده .

٢ – فلسفة عملية: تبحث عما يجب عمله و التحلی به.

و من هنا اعتبر اليونانيون أول من بحث فی الوجود و الأخلاق بمنهج عقلی كما أعتبر عصرهم بداية التاريخ الفلسفی للإنسان.

---

[٨٢] الدكتور / محمد عبد الله دراز، ص١٠١ (دار القلم الكويت١٩٧٣).

سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م)

كانت فلسفة سقراط الإنسانية-بحق-هي أول خطوة من خطوات التفكير الفلسفي المنهجي الصحيح عند اليونان. كما كانت كذلك حجر أساس لما جاء بعدها من فلسفتي "أفلاطون" و "أرسطو". و لقد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن سقراط في تاريخ الفكر اليوناني، بل و الإنساني كان من القوة. بحيث أتيح لاسمه إن يشطر الفلسفة اليونانية شطرين. ما قبلة و ما بعده.

و لقد كان سقراط صورة رجل من طراز خاص، رجل شديد الثقة بنفسه. يسمو بتفكيره عن السفاسف و لا يأبه للنجاح في الدنيا، و يعتقد بأنة مهتد بصوت مقدس، و مؤمن بأن التفكير الواضح أهم ما تتطلبه الحياة الصحيحة، و كانت تنتابه في كثير من الأحيان موجات من الحماس و الجذب الصوفي الحقيقي يحمل نفسه على الصعود به إلي مرتبة من السمو، لا يصل إليها غيرة من عامة الناس.

قال الذين يعرفونه إن من عاداته إن يقف في أي مكان و يذهل عن نفسه بدون سبب، و كان مما يثير الدهشة عند الناس جميعا عدم اهتمامه بحرارة أو برودة. بجوع أو عطش، و كانت له سيطرة عجيبة على شهوات جده يقسوا عليه ليروضه على طاعة العقل، و لقد وجه عنايته للفلسفة و وقف حياته عليها و ذلك لإيمانه بأن الفلسفة هي رسالته في الحياة، و كان يؤثر الحديث إلى الشباب و يهدف من ذلك إصلاح ما أفسده السوفسطائيون من أمرهم و لكي يبصرهم بالحق و الخير ليهيئ لبلادة مستقبلا طيبا على

أيديهم، و مع هذا كله فقد كان فيلسوفا متواضعا و كان يقول: لست حكيما و إنما أنا محب لمحكمة و كثيرا ما كان يردد هذا الرجل (أنا أعرف شيئا واحدا و هو أني لا أعرف شيئا).

و لقد كان سقراط يؤمن بأنه يؤدى رسالة فرضتها الإلهة عنه و لقد أيقظت فلسفة سقراط ما هى جديدة به من الإقبال و الإجلال، فالتف حولها شباب أثنا و مريد و الحكمة من أهلها و غيرهم ينهلون الحكمة من مواردها العذبة الشهية و أصبح سقراط علما مرفوعا جديرا بالاحترام. عندما نازل السوفستائيين و أفحمهم و هدم نظريتهم القائلة لا حقيقة لشىء من الأشياء نجمع عليها العقول فأثبت سقراط أن حقائق الأشياء ثابتة و أن المعارف الإنسانية مبينة على أساس محكم موثوق به.

و لقد أخلق سلوك سقراط بعض أعدائه فوشوا به إلى الحاكم بتهمة أنه ينكر الآلهة و يقول "بإله واحد" و أنه يفسد بتعاليمه شباب أثينا، و لقد حكم عليه بالموت، و لما أدع بالسجن أراد بعض تلاميذه أن ينقذوه من براثيم الموت، فحسنوا له الهروب و بذلوا مساعيهم فى ذلك و لكنه رفض و أجابهم فى كبرياء الحكماء و ثقة الفيلسوف، بأنه ليس من الأخلاق أن يفر من قوانين أثينا التى طالما حمته من أعدائه و أعداء وطنه. هذه هى حياة سقراط التى بدأت الفلسفة به عهدا جديدا.

مذهب سقراط الخلقي

يعد سقراط مؤسس علم الأخلاق، و من قوله أن السعادة غاية أعمالنا و ميولنا، و قد جعل من المعرفة قاعدة أخلاقية، و كان يرى أن المعرفة هي الفضيلة، و الجهل هو الرذيلة، و أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش كما ينبغي إلا إذا حقق عمليا القاعدة المكتوبة على معبد "دلفي" (اعرف نفسك بنفسك). فمعرفة النفس عند سقراط هي الشرط الضروري ليستمر الإنسان من الحياة ما يمكنها أن تعطيه، بل ما يجب أن تعطيه بقول سقراط:

إذا ما وجدت ما يلزمك بدون أن تبحث عنه فذلك ما أسميته الحظ السعيد، أما إذا كنت مدينا بالسعادة إلى عنايتك و بحثك فهذا-فيما أرى- هو السلوك الحسن و السعداء بهذه الكيفية هم حقا المحسنون[٨٣].

و لعل عظمة سقراط تتجلى على وجه أكثر إشراقا في ربطه الحكم بين القول و العمل بين النظرية و التطبيق، و قد حرص على أن تكون حياته العملية و سلوكه الأخلاقي متطابقا مع ما يدعو إليه من أفكار حتى يمكن القول بأن علم الأخلاق استكمل ملامحه النظرية و العملية على يده فقد كان يؤمن بأن الفضيلة في المعرفة و العلم-كما قلنا سابقا-و كان يرى أنه بغير هذه المعرفة و العلم لا يمكن أن بحيث يوجد العلم يكون العمل، فالإنسان لا يمكن أن يصل إلى الغاية التي ينشدها إلا إذا عالما مسبقا بالوسائل المؤدية إليها. فتحقيق الغاية يقتضي العلم بالوسائل فالعلم سابق

---

[٨٣] أنظر ص ٨١-٨٢ من مسيرة الفكر الإنساني في العصر القديم، الطبعة الأولى للمؤلف.

على العمل، كذلك ينبغي -في رأيه- إذا وجد العلم أن يتبعه العمل، و في هذا المعنى يقول سقراط: (إن الإنسان لا يمكن أن يفعل الشر و هو عالم بأنه يفعل الشر فلا يعمل الإنسان الشر باختياره، لأن مصدر الشر هو الجهل، و لا ينصرف الإنسان عن سعادته باختياره، فإذا علم الإنسان أن هذا الشيء نلفع له و يفيد فإنه لابد أن يعمله و لا يؤجله، في حين إذا حدث العكس ترك الإنسان الفعل الذى يجلب عليه المضرة)[84].

قدس سقراط المعرفة حتى جعلها مقياسا للخير، فمن عرف كان خيرا و من جهل كان شريرا، و قد نقض هذا الرأى بعض الفلاسفة حتى لقد جرحه "أرسطو" تلميذه فقال ما معناه: لقد نسى سقراط أو جهل أن الإنسان ليس عقلا خالصا بل هو مركب من العقل و العاطفة و الشهوات، فربما أتى الشر خضوعا لتلك الغرائز و الشهوات و هو عالم بأنه شر، و ربما ترك الخير و هو عالم بأنه الخير[85]. و نحن من ناحيتنا نستطيع أن نقول إن لنظرية سقراط فيها من الحقيقة شيء كثير و أن أرسطو قد نسى أو جهل أن سقراط إنما يريد المعرفة الكاملة التى متى وصل الإنسان إليها و ارتفع إلى درجتها عنها على حكم الغرائز و الشهوات و لم تنخدع بما فى الشر بجاذبية خداعة، بل يكفى للإنسان معرفة الخير ليؤديه بالطبع و أول الفضائل التى تحتوى على جميعها هى الحكمة أى تمييز الخير، و هذه الحكمة تبعا لأغراضها، شجاعة اعتدالا أو عدلا أو تدينا، و كان سقراط يوصى باحترام المرأة و الرفق بالعبد و بر الأبناء بالآباء و تفضيل الخير العام على الخير الخاص، و كان سقراط

---

[84] أنظر ص ٤٤ من أفلاطون للدكتور/عبد الرحمن بدوى، الطبعة الثالثة.

[85] أنظر ص ١٤ أبحاث فى فلسفة الأخلاق، أبو بكر ذكرى.

يرى أن الجمال جزء من الأخلاق، لأنه يوجد عند الفنان و عند الإنسان الكامل فى مظاهر الاعتدال و الإجلال.

و لقد كان فضل سقراط عظيما فقد وضع حدا لشذوذ الفلاسفة الطنيعين و المغالطين و جعل للفلسفة غرضا ساميا و هدفا نبيلا و غاية عظمى و هى إصلاح السلوك للفرد و المجتمع.

أفلاطون (٤٣٧-٣٤٧ ق.م)

إن أفلاطون من نوابغ الفكر و أول الفلاسفة و أشهر الحكماء، و هو أول من أنشأ المدارس الفلسفية العظيمة فكانت "أكاديميته" إحدى مدارس أربعة أثرت أعظم الأثر في الحضارة القديمة، و هذه المدارس الأربعة هي: الأكاديمية، و المشائية، و الرواقية، و الابيقورية، و قد ظلت مدرسته قائمة في أثينا حيث أنشأها تسعة قرون حتى أغلقها الامبراطور جستنيان و طرد فلاسفتها، ثم استمرت الأفلاطونية مؤثرة في الفكر حتى الوقت الحاضر.

و قد قيل أن الفلسفة نبتت على يده و اكتملت في حياته، و ما سائر الكتب بعد ذلك إلا شروح على مؤلفاته و هوامش في أسفل صفحاته[٨٦].

و قد تتلمذ أفلاطون على يد سقراط و كان مخلصا له أثيرا عنده و دائما على مودته أعواما طويلة و كان من الذكاء و النجابة على شيء كبير حتى قال فيه سقراط (كم من أشياء حملني هذا الفتى على الخوض فيها و لم تكن قد خطرت لي من قبل ببال).

و لقد تلقى أفلاطون تعاليم سقراط زهاء عشرة أعوام و صحبه حتى الموت و نقل تعاليمه إلى الأجيال و استمر أفلاطون طوال حياته ينشر المعرفة و يلقى أفكاره على طلبته في ش. محاورات و لذا فإن شبشرون الخطيب

---

[٨٦] أنظر ص ٧ أفلاطون، للدكتور/أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

الرومانى يقول (إن يمينه لم تترك القلم و فكره لم ينفك عن التأليف حتى آخر نسمة من حياته).

و مما لا شك فيه أن نبوغ أفلاطون يعود إلى الأثر العظيم الذى تركه فيه أستاذه سقراط و دليل ذلك قول أفلاطون نفسه (شكرا لله لأنه خلقنى يونانيا لا بربريا، حرا لا عبدا، رجلا لا امرأة، و شكرا له لأنه خلقنى فى عهد سقراط)[٨٧].

مذهب أفلاطون الأخلاقى

لقد اهتم أفلاطون بمثل أستاذه سقراط بالأخلاق اهتماما كبيرا كما كان صاحب مذهب فى الوجود و فى الطبيعيات و فى النفس، على العكس من أستاذه مما جعله يختلف عنه بعض الشىء فى مذهبه الأخلاقى و إن لم يخرج عن الإطار العام الذى وضعه سقراط، فهو لا يختلف عن أستاذه إلا بالتحليل و التسمية، فإذا كان سقراط جعل معياره المعرفة، فإن أفلاطون نظر من الغاية من تلك المعرفة و هى-نظرة-العدالة.

و لقد بدأ أفلاطون كتاب (الجمهورية) بسؤال أخلاقى هو ما معنى العدل أو الصواب؟ و الكلمة الإغريقية المساوية لمعنى العدل و الصواب متسعة المعنى بحيث تغطى الصواب أو الصحة بالنسبة للفرد كما تشمل كذلك أخلاقية المجتمع، و هكذا كان بحث أفلاطون بادئ ذى بدء متعلقا بالفرد و المجتمع على السواء، فنظرته تشمل السياسة و الأخلاق.

---

[٨٧] ص ٢٤، الفلسفة العربية عبر التاريخ، رمزى بخار، الطبعة الثانية-بيروت.

و لذلك فإننا نرى بعض أجزاء من جمهوريته معنية بغرض الصورة العامة للمجتمع المثالى ثم فى جزء آخر منها يعود أفلاطون إلى معالجة المشكلة الأخلاقية على مستوى الفرد و هو يحاول أن يعرفنا أنه من خلال تحليل عناصر أو قوى العقل الإنسانى يتبين أن صلاح الفرد و كمال تطوره و سعادته رهن أداء ما هو صواب و تجنب ما هو خطأ. و قوى النفس عند أفلاطون تتحدد فى ثلاثة، و يؤكد أفلاطون على التوازن بين الفرد و بين الدولة (المجتمع)، يقول أفلاطون: (لما كانت صفات المجتمع ليست شيئا سوى صفات الأفراد فإننا نتوقع أن نرى هناك ثلاثة أقسام أو مبادئ فى الروح الشخصية، و كل هذه المبادئ موجودة فى كل نفس، و لكن التركيب الاجتماعى مبنى على أساس أن تلك الصفات قد تم تطورها على مستويات كثيرة فى أنماط متعددة الشخصيات).

إن النفس تنقسم عنده إلى قوى ثلاثة هى:

١- القوة الشهوية.

٢- القوة الغضبية.

٣- القوة العاقلة.

و الفضائل عند أفلاطون تنقسم كذلك إلى أقسام ثلاثة:

أ- الفضيلة الأولى: و هى العفة و هى تقابل القوة الشهوية التى مركزها البطن.

ب- الفضيلة الثانية: هى الشجاعة و هى تقابل القوة الغضبية التى مركزها القلب.

جـ- الفضيلة الثالثة: هى الحكمة التى تقابل القوة العقلية و مركزها الرأس و بالتحديد العقل.

و تجتمع هذه القوة الثلاث وحدة واحدة، لذا جعل أفلاطون هناك فصيلة رابعة تعلو فصائل قوى النفس الثلاثة هذه الفصيلة الرابعة هى العدالة، و مهمتها تحقيق الانسجام بين جميع الفصائل فهى فضيلة موازنة بين مقتضيات و واجبات كل قوة من هذه القوى و لهذا فقد سميت بالعدالة و لذا فإن المعيار الخلقى عند أفلاطون يتحدد فى العدالة.

و يتم الوصول إلى أية فضيلة من الفضائل السابقة عن طريق سيطرة القوة العاقلة على القوة الشهوية و القوة الغضبية و تتحقق السعادة بعد تحقيق العدالة. و هذه هى غاية الإنسان من التحلى بالفضائل، هذا إلى جانب التشبه بالخير الأسمى و محاولة الوصول إليه[٨٨].

إن لكل قوى من قوى النفس غاية يتحقق لها الكمال ببلوغها، فالعاقلة غايتها الحكمة، و الشهوات غايتها العفة، و الغضبية غايتها الشجاعة، و أشرف هذه القوى هى القوى العاقلة التى متى سيطرت على القوى الأخرى تحققت العدالة و هى أم الفضائل، و ضد العدالة الظلم و هو رأس الرذائل، و يكون و جعل القوى العاقلة أو (الناطقة) تحت أمر القوة الغضبية و الشهوية و فى خدمتها و بالتالى تتحقق باقى الرذائل و هى الشر و الجبن.
و بعد فإننا نرى من مذهب أفلاطون أنه أعتبر الجسم و رغباته مبدأ لكل شـ كما جعل العقل مبدأ لكل خير، و تعتبر جمهورية أفلاطون هى التطبيق

---

[٨٨] ص ٣٥ من محاضرات فى الأخلاق، د. سهير محمد مختـــار، الطبعـــة الأولـــى ١٩٧٦.

لنظريته فى الأخلاق حيث قسم جمهوريته إلى ثلاث طبقات تبعا لتقسيمه لقوى النفس الثلاثة و هى طبقة الحكام و هم عنده الفلاسفة و يقابلون قوى النفس العاقلة، و طبقة الجند و يقابلون عنده القوى الغضبية، و طبقة العامة و الصناع و هى أدنى الطبقات و يقابلون القوة الشهوانية، ثم جعل من كل طبقة حاكما و سيدا على القوة التى تحتلها و أعطى كل طبقة من الامتيازات بقدر ما لها من فضل و رقى فى هذا السلم الطبقى، و كما تتحقق العدالة بقهر قوى النفس لطاعة القوى العاقلة (الناطقة) لذلك تتحقق العدالة فى الدولة و يرى أن باقى الطبقات تكون تحت حكم الفلاسفة.

هذا و مما يؤخذ على أفلاطون أنه-فى سبيل تحقيق العدالة-ذهب إلى الحكم بقتل الأطفال و الضعفاء و المرضى و من لا عمل لهم من جمهوريته، و احتقار الأسرة كمؤسسة تربوية و نواة المجتمع فدعى إلى شيوعية النساء و حضانة الدولة لكل مولود فيها فترعى الصالح فيهم و تتخلص من الباقى فتقذف بهم إلى أحضان الدمار و الهلاك و الموت.

كما يؤخذ على أفلاطون أيضا أنه ذهب إلى مثالية تتنافى مع الواقع، و لم يحدد أفلاطون الحد التى تحقق به العدالة إلا بعبارات عامة.

أرسطو

لا شك أن أرسطو من الفلاسفة الذين طبقت شهرتهم الآفاق و ذلك بسبب أبحاثه الفلسفية و لا سيما "علم المنطق"، و كان أرسطو تلميذا لأفلاطون، و كان أرسطو يلقي دروسه على تلاميذه و هو ماشي لذا أطلق على هؤلاء التلاميذ لقب "المشائين".

و قد تأثر بأرسطو كثير من الفلاسفة من الشرق و الغرب معا، و قد قامت على مؤلفات أرسطو عدة شروح، و اهتم الفارابي و ابن سينا بشرح كتب هذا الفيلسوف العظيم الذي بحث في الأخلاق، و كان-كما يرى كثير من الباحثين-أول من وضع مذهبا فيها.

مذهب أرسطو الخلقي

يعتبر كتاب أرسطو "علم الأخلاق إلى نيقوماخوس" أهم المصادر لتعاليم أرسطو الأخلاقية، و هو أوثقها من حيث نسبتها إلى أرسطو، و أهم انطباع نخرج به من هذا الكتاب بالنسبة للأخلاق: هو أن الأخلاق ليست طبعا و إنما هي تطبع، و ليست موهبة و إنما هي تكتسب بالتعليم و الدربة و المران. يقول ارسطو :

(فالفضائل ليست فينا بفعل الطبع وحد[illegible] و [illegible] فينا كذلك ضد إرادة الطبع، و لكن الطبع قد جعلنا قابلين لها، و أن العادة لتنميها و تتمها فينا).

و كان أرسطو يرى أن الإنسان يحتاج إلى جماعة ليعيش في ظلالها، فالإنسان عنده مدني بالطبع، و من هنا كانت الحاجة إلى الأخلاق و ذلك لتنظيم علاقة الفرد بالفرد ثم بالمجتمع، كي يعيش المجتمع في الخير الأعظم الذي يراه أرسطو غاية الحياة.

و لكن ما هو هذا الخير الأعظم؟ . . . هل هو السعادة؟ . . . و إذا كان كذلك فما هي السعادة؟

لقد اختلف الناس في تحديدها فبعضهم يراها في اللذة، و بعضهم يقول أنها الحكمة، و بعضهم و منهم أرسطو يحصرها في الفضيلة، و لكن أرسطو ينفرد حيث له فهم خاص للفضيلة فهو يرفض الفضيلة الحزينة العابثة المحرومة من طيبات الحياة تقنع بالعقليات المجردة و تطرح حاجات الجسم و تميت الميول و العواطف.

و هو يقرر أنه و إن كانت الفضيلة المجردة من الخير العام أو الأعلى فإن الخيرات الدنيوية الخاصة جديرة أن تكون لها كمالا على كمال. و أن حصول الفيلسوف الفاضل على الصحة و الثراء و الجمال و الأسرة الشريفة و التقدير و الإجلال الجدير بمقامه، كل ذلك يزيد في فضيلته و يكملها[٨٩].

و يرى أرسطو بأن الفضيلة وسط بين طرفين كلاهما رذيلة، فالكرم الذي هو فضيلة وسط بين الإسراف و بين التقتير و كلاهما رذيلة، و الشجاعة وسط

---

[٨٩] أنظر ص ١٧-١٨، فلسفة الأخلاق، أبو بكر ذكري.

بين الجبن و التهور و كلاهما رذيلة، و الاعتدال فضيلة وسط بين إفراط. و بالجملة فإن الفضيلة هي المران على عمل الخير و تكون في اختيار أواسط الأمور، و مقياس السلوك الأخلاقي عنده كذلك هو التزام الوسط في كل شيء.

فإذا نظم الإنسان حياته تبعا لهذا المعيار "الاعتدال" عاش عيشة سعيدة، فالسعادة عند أرسطو يمكن أن تنال عن طريق الاتزان و التحلي بحياة التأمل العقلي، و ضبط المرء سلوكه تبعا لإرشاد العقل فتصبح الحياة العملية مظهر للعقل و مطيعة له.

إن السعادة عند أرسطو كما ينقل عنه أندريه كريون هي: أن يكون الإنسان رجلا بمعنى الكلمة حسن الصورة، سليما، متزنا، مالكا لثروة تكفيه محفوفا بجماعة مسالمة–و أن يكون فضلا عن ذلك مستنيرا معتاد التفكير — و البحث عالما بقدر الإمكان.

أما طرقة الوصول إلى ذلك فأساسه أولا و أخيرا هو الأخلاقية [٩٠] و يرى ارسطو إن هناك نوعين من الفضائل: فضائل عقلية و فضائل خلقية و ذلك يطابق قسمي النفس الإنسانية:

١ – القسم الناطق أو العاقل.

---

[٩٠] انظر إلى ص١٦ المشكلة الأخلاقية و الفلسفة.

٣- القسم غير العاقل الذى ينقسم بدورة إلى نباتية و شهوانية و قد تصبح الشهوانية متعلقة إذا كانت الخبرات التى تقصد إليها يستحسنها العقل و هذا أمر جوهرى بالنسبة إلى الفضيلة.

فإن العقل وحده –كما يرى أرسطو–ليس له من عمل إلا التأمل الخالص و لا يقود إلى نشاط إيجابى عملى إلا بمساعدة الشهوة و تكتسب الفضائل العقلية عن طريق التعلم، أما الفضائل الخلقية فتكتسب عن طريق العادة و الآلف، و لذا وجب إن يكون عمل المشرع الأول هو جعل المواطنين صالحين بتكوين عادات صالحة.فالإنسان يوصف بالعدل إذا أدى أعمالا تتصف بالعدل، و كذلك الأمر بالنسبة إلى الفضائل الأخرى.

و يعتقد أرسطو أننا حملنا حملا على اكتساب عادات صالحة أمكننا بمرور الوقت إن نحصل على متعة حقيقية من أداء الإعمال الصالحة و هنا يربط أرسطو بين المتعة و اللذة أو اللذة و بين الفضيلة.

و لعل أرسطو أنتبه إلى خطورة هذه الفكرة التى تكاد تضعه جنبا إلى جنب مع " أبيقور" الذى أسس مذهبه على اعتبار اللذة خيرا عاما لذا نراه ينص على إن هناك متعا ولذائذ سيئة لا تليق بالأخيار من الناس و إن خيرية الذة أو شربتها رهن بما ترتبط به من أنشطة جيدة أو رديئة بل إن أرسطو ليذهب أبعد من ذل: حين يعلن إن هناك ما يفوق اللذة قيمة و قدرا. و أن اللذة الجديرة بالإنسان ترتبط ارتباطا وثيقا بالفعل[٩١]

---

[٩١] ص٢٦-٢٧ : مدخل إلى الأخلاق: د.كمال جعفر بتصرف.

أرسطو و الوسطية

إن فكرة الوسط التى عدها أرسطو ضابطا لتحديد الفضيلة لا نوافقه عليها فلا يمكن أن نجعل الوسطية قانونا عاما فى الأخلاق، فإن هناك فضائل لا يتصور فى حقيقتها وسط. فالصدق مثلا مطابقة الخير للواقع فعلا لا يتصور فيه أن يغالى فيه أو ينقص منة، بل لابد أن يضبط بنظام محدد حتى يصبح فضيلة، لأن لا يحتمل نقصا أو مغالاة، فإما أن يطابق قولك الواقع فيكون صدقا و عندئذ يصبح فضيلة و إما أن يخالفه فيكون كذبا و عندئذ يصبح رذيلة.

و إذا كان الوسط أمر شخصى تقديرى كما يرى أرسطو فكيف يمكن أن يعلم؟ فقد يكون الوسط عند الجاهل لا يتناسب مع الوسط عند المثقف و قد يختلف الوسط فى تقدير الشخص النابه و الشخص الخامل. و لا يدفع هذا الأشكال ما يقدمه أرسطو لنا من تعريفات عامة لبعض الفضائل، فإنه حين يعرف الكرم مثلا بأنه التوسط بين الإسراف و التقتير فإن هذا التعريف لا يفيد شيئا فى تحديد فضيلة الكرم و طالما ربطنا الوسط بظروف الفرد نفسه فإن تقدير الإسراف و التقتير أمر نسبى يجعل الكرم متأرجحا لا يمكن ضبطه.

الماركسية و الأخلاق

جوهر الأخلاق في الماركسية

إن الأخلاق-فى نظر الماركسية-هى المجموع الكلى لمستويات و قواعد السلوك فى مجتمع من المجتمعات.و هى تعبر عن أفكار هذا المجتمع: عن العدل و الجور، عن الخير و الشر، عن الشرف و الخسة، إلى أخر تلك الصفات.

و تفترق مستويات و قواعد السلوك الأخلاقية عن القواعد التشريعية فى أنها ليست مسجلة فى القانون، بل هى محفوظة بفضل الرأى العام و العرف و العادات و التقاليد و الثقافة و قوة العقيدة لدى الإنسان.

إن هذه القوانين و المستويات الأخلاقية تحدد علاقة الفرد بالمجتمع و بالأسرة و بالأفراد الآخرين.

و قد نشأت الأخلاق بنشوء الجماعة الإنسانية، و المجتمع دائما يحدد مطالب معينة يوجبها على أعضائه، و يعبر عنها بتلك المستويات الأخلاقية و هذه المستويات ليست ثابتة دائمة بل إنها تتغير بتطور المجتمع تحت تأثير التغيرات التى تتم فى الإنتاج و الاقتصاد و ما يتبع ذلك من علاقات مختلفة و بظهور الطبقات المختلفة بدأت تلك المستويات تعكس مصالح طبقة أو أخري و بهذا اكتسبت الأخلاق طابع الطبقية. و فى المجتمع الذى يضم طبقات متخاصمة أو متسارعة توجد أخلاقيات للطبقة المستغلة بل و تسود

أخلاق هذه الطبقة على أخلاق الطبقة ضحية هذا الاستغلال، و لهذا فإن أخلاقيات الطبقة الحاكمة هي التي تسود دائما.

ففي مجتمع الرق سادت أخلاقيات السادة أو ملاك العبيد كما أنة في مجتمع الإقطاع سادت أخلاق الإقطاعيين على الفلاحين.

و في المجتمع الرأسمالي طفت أخلاق الرأسماليين على المجتمع البرجوازي و على نقيض هذه المستويات الأخلاقية وقعت مستويات و مبادئ أخرى بالنسبة للعبيد و الفلاحين و العمال.

و يرى الماركسيون أن هناك نوعين من الأخلاق يتصارعان في أي مجتمع في العصر الحاضر: أحدهما الأخلاق الشيوعية، و الأخر الأخلاق البرجوازية.

و في رأي هؤلاء تلعب الأخلاق البرجوازية دورا رجعيا في تطور المجتمع و هدفها الرئيسي هو الحفاظ على الملكية الخاصة و حراسة الاحتكار و الاستغلال و هو محور الرأسمالية و ترى الشيوعية إن الدين في البلدان الرأسمالية يصرف الطبقة العاملة عن الجهاد ضد المستغلين فهو يحذرهم و يمنيهم بنعيم مقيم في الدار الآخرة[٩٢]

[٩٢] ص٩٥-٩٦: مدخل إلى الأخلاق: د.كمال جعفر.

و ترى الشيوعية أن الواقع الاقتصادى هو المؤثر فى كل شئ و أن الفكر البشرى انعكاس للواقع المادى، فالمادة هى الأساس الوحيد و عنها ينبثق الفكر و تنبثق المشاعر و الأحاسيس و من هذه المشاعر الدين نفسه.

إن الاقتصاد-أو البحث عن الطعام و الشراب-هو منبع كل عقيدة-و أساس كل مبدأ و قيمة-بل إن الشيوعية لتطبق ذلك على كل معنى و سلوك إنسانى على المشاعر و الفنون، على الأخلاق و العلاقات الاجتماعية على كل شئ .

فالعلم مثلا-ليس أصلة الرغبة الفطرية فى اكتشاف الحقيقة-فليس فى قاموس الشيوعية شئ يسمى الفطرة-لكنة كما قال انجلز:
و إذا كانت العلوم قد نهضت فجأة بعد ليل القرون الوسطى المظلم بقوة لا ريب فيها، و نمت بسرعة المعجزة فإننا مدينون بهذه المعجزة الجديد:للإنتاج[٩٣].

و تقول عن الأخلاق:
إن الناس عن وعى أو لا وعى يستمدون مفاهيمهم الأخلاقية-فى التحليل الأخير-من العلاقات العملية التى يقوم عليها وضعهم الطبيعى أى من العلاقات الاقتصادية التى ينتجون بها و يتبادلون فيها[٩٤].

---

[٩٣] نصوص من انجلز ص١٨٧.
[٩٤] المصدر السابق ص١٥٩.

إن الأخلاق-عند الشيوعية-تخضع للاقتصاد و لما كان الاقتصاد فى تغير مطرد فإن الأخلاق لا ثبات لها بل إنها ترى أن لكل طور تاريخى دينه و أخلاقه و تقاليده و علاقاته المنبثقة من وضعة الاقتصادى، فإذا ما أنتقل إلى طور أخر تغير كل ذلك تغيرا حتميا تبعا لتغير الطور الاقتصادى . يقول انجلز:

منذ اللحظة التى تطورت فيها الملكية الخاصة للأشياء المنقولة كان لابد لجميع المجتمعات التى تسود فيها هذه الملكية الخاصة أن تكون فيها هذه الوصية الأخلاقية المشتركة: لا تسرق.....فهل يعنى أن تصبح هذه الوصية وصية أخلاقية سرمدية؟ كلا أبدا. ففى مجتمع أزيلت منة دوافع السرقة لا يمكن أن يرتكبها مع مرور الزمن غير المجانين كم سيضحك الناس من الواعظ الأخلاقى الذى يود أن يعلن على رؤوس الأشهاد الحقيقة السرمدية "لا تسرق".

و لهذا فإننا نرفض بأن تفرض علينا أية عقائد أخلاقية كقانون سرمدى نهائى لا يتزعزع بعد اليوم بذريعة أن العالم الأخلاقى هو أيضا له مبادئه الدائمة التى هى فوق التاريخ و الفوارق القومية.

فنحن نؤكد-بالعكس-أن كل نظرية فى الأخلاق حتى اليوم أنها كانت- فى التحليل الأخير-نتاج الوضع الاقتصادى للمجتمع فى أيامها كما أن المجتمع قد تطور حتى اليوم ضمن تعارضات طبقية. فقد كانت الأخلاق على الدوام أخلاقا طبقية[٩٥]

---

[٩٥] نصوص من انجلز ص١٦٠.

هذا و ترى الشيوعية أن الشرور كلها محصورة منذ بدء الخليقة إلى الآن في علة واحدة هي "الملكية الفردية" أو "الملكية الخاصة" و لذلك فإنهم يؤمنون إيمانا أعمى بأن القضاء على هذه الملكية الخاصة و قبض الدولة على وسائل الإنتاج كفيل بتحقيق الجنة الأرضية و إزالة كل الشرور و المساوئ التي يعج بها التاريخ و لا تستثني الشيوعية من ذلك شيئا حتى المرأة فإنها تصبح في نظر الشيوعية مباحة لكل رجل. و ذلك لان الزواج ينتج الأسرة و الأسرة–في نظرهم–أعدى أعداء المجتمع الطبقي، لأنها تحتم على المرء أن يتملك و يدخر و الملكية الخاصة تقليد إقطاعي استغلالي إن لم يتم القضاء علية انتكس المجتمع إلى طور تاريخي أدنى[96].

و الدين–و هو أساس الأخلاق–تنظر إليه الشيوعية على انه أوهام و خرافات انعكست من الوضع الاقتصادي– أو وضعها المحتكرون من الطبقات العليا ليخدروا الكادحين و المنكوبين ليستأثروا بكل شئ في الدنيا و يعدوهم بالعوض في الآخرة، و من هنا وجبت–على الشيوعيين– محاربته و النضال في سبيل القضاء علية لتحرير المجتمع من الاستغلال و التحكم الطبقي و الدول الشيوعية تتبنى رسميا محاربة الدين و تدرس الإلحاد و المادية لاتباعها و تبذل الوسائل للقضاء على الدين و نسف كل ما يفي لديها من رواسب الأخلاق و الفضيلة.

---

[96] ص٣٠٢: العلمانية: سفر عبد الرحمن الحوالى دار مكة للطباعة و النشر و التوزيع طبعة أولى سنة١٩٨٣ و أنظر مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب ص٢٩٨.

تعقيب

رأينا إن الشيوعية لا تؤمن بأخلاق ثابتة و إنما تتغير هذه الأخلاق بتغير العوامل الاقتصادية معنى ذلك إن الشيوعية تنكر كل الأخلاق التى تعارفت عليها الإنسانية بل و التى جاء بها الوحى و أمرت بها الأديان إنهم يكرهون أسس الفضائل الإنسانية: إنهم يكرهون الرحمة و لا يعرفون الشفقة و هذا ما أعترف به أحد زعماء الشيوعية يقول "لينين".

(نحن لا نحتاج إلى الحب، بل إننا أحوج إلى البغض و الأحقاد. يجب علينا أن نتعلم البغض و أن نرضعه مع اللبن)[٩٧].

و يقول كارل ماركس:

الشيوعيين لا يبشرون بأية أخلاق على الإطلاق، إنهم لا يضعون للناس الأمر الخلقى "أحبو بعضكم البعض، لا تكونوا أنانيين ....الخ.

بل بالعكس إنهم يعرفون تماما أن الأنانية مثل التضحية هى فى ظل ظروف معينة الشكل الضرورى لصراع الفرد من أجل البقاء[٩٨].

نحن نكره المسيحية و المسيحيين، و حتى أحسن المسيحيين خلقا نعده شر أعدائنا، فهم يبشرون بحب الجيران و العطف و الرحمة، و هذا يخالف

---

[٩٧] ص٣٩٧ الفكر العربى المعاصر للأستاذ أنور الجندى.

[٩٨] ص٢٣٧ المؤلفات الكاملة لماركس و انجلز قسم أول.

مبادئنا و الحب المسيحي عقبة فـي سـبيل تقـدم الثـورة، فليسـقط حبنـا لجيراننا فإن ما نريده هو الكراهية و العداوة و حينذاك نستطيع غزو العالم.

إن الشيوعية لا تهتم إلا بنشر نـوع غريـب مـن الرذائـل بـين شـبابها تجعلـه قاموس أخلاقها، و ها هـو "لينين" يحـدد واجبـات منظمـات الشـباب فـي الخطـاب الـذي ألقـاه بـالمؤتمر الروسـي لاتحـاد الشـباب الشـيوعي فـي ١٩٢٠/١٠/٢.

حيث أكد في هذا الخطاب كفر الشيوعية بالله "مصدر الأخـلاق" و بين أن أخلاقهم تختلف عما هبط بها وحي السماء.

لقد بدأ "لينين" خطابة قائلا:
أيها الرفقاء يسرني أن أبحث معكم اليوم فـي موضـوع الواجبـات الأساسـية لاتحاد الشباب الشيوعيين: ثم قال:
إن أول ما أرى إيضاحه لكم في هذا الصدد هو دستور للأخـلاق الشيوعية: إننا ننكر أن مبادئ الأخلاق هي أوامر من عند الله فنحـن بـالطبع لا نؤمـن بالله... و نحن ننكر كل أخلاق لا يكـون مصدرهـا المـدارك الإنسـانية و إن القوة التي تسيطر على أخلاقنا هي مصلحة طائفتنا، فدستور أخلاقنـا مستمد من حركـة كفاحنـا العمالية، نحـن لا نعتقـد فـي الأخـلاق الأزليـة و نعـد كـل الأقاصيص الخرافية التي ترمي إلى غرض أخلاقي قولا هراء.

إن الأخلاق التى تعترف بها الشيوعية هى-فقط-الأخلاق التى تخدم مصالحها و تدعم وجودها و تعزز مركزها مهما كانت نوعية هذه الأخلاق يقول "لينين":

أن الأخلاق الشيوعية إنما تخدم مصالح الطبقة العاملة و مضمونها و هدفها الرئيسى أن تبنى و تدعم الشيوعية[٩٩] و يقول "لينين" أيضا:

يجب على المناضل الشيوعى الحر أن يتمرس بشتى ضروب الخداع و الغش و التضليل، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية[١٠٠].

و يقول انجلز:

إن الأخلاق التى نؤمن بها هى كل عمل يؤدى إلى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافيا للأخلاق المعمول بها[١٠١].

و يقول لينين:

إذا لم يكن المناضل الشيوعى قادرا على أن يغير أخلاقه و سلوكه وفقا للظروف مهما تطلب ذلك من كذب و تضليل و خداع، فإنه لن يكون مناضلا ثوريا حقيقيا.

و من قواعد الشيوعية نرى أن الغاية تبرر الوسيلة و تجعل هذا قانونا لها.

---

[٩٩] نقلا عن د.كمال جعفر ص١٠٠ مدخل إلى الأخلاق.

[١٠٠] ص٣٧ اشتراكيتهم و إسلامنا للأستاذ بشير العوف.

[١٠١] المصدر السابق ص٢٧.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود:

و مما لا شك فيه أن الأساليب الشيوعية تتخذ من أسسها "الغاية تبرر الوسيلة" و هذا وحده أعظم برهان على أن الانحطاط الخلقى عندهم شيء هام بل و معترف به رسميا و أنة القاعدة[102] و من هنا فإن الأخلاق التى تؤمن بها الشيوعية هى أخلاق من نوع غريب لا يقول بها حتى الشعوب الصارمة فى التخلف الحضارى فينبغى-و الأمر كذلك-أنه نستحيها من حسابنا و أن نعمل على تخليص البشرية من ويلاتها و شرورها.

[102] ص٣٥ د. عبد الحليم محمود. الإسلام و الشيوعية.

الأخلاق فى رحاب الإسلام

تمهيد

قبل أن تشرق شمس الإسلام بتعاليمه السامية و أخلاقه السمحة كانت الأمة العربية خلوا من العلوم و الفلسفات بمعناها المتعارف ذلك لأن العلوم و الفلسفات مظهر نهضة و علامة حضارية و دليل تقدم و مدنية و ما كان أبعد معظم الأمة العربية عن هذا كله، و من هنا كان المجتمع العربى يعج بكثير من المفاسد و الرذائل و الموبقات و كان شعار العرب العام يتمثل فى قول الشاعر:

و من لم يزد عن حوضه بسلاحه تهدم

و من لا يظلم الناس يظلم[١٠٣]

و قد تنكر العربى لأنبل عاطفة عرفتها البشرية فكان يقتل أبنته و فلذة كبده و قد صور القرآن الكريم الحالة النفسية للعربى عندما كان يبشر بفتاة قد ولدت له(و إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهة مسودا و هو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب إلا ما يحكمون)[١٠٤].

و قد انتشرت شريعة الغاب و كثرت المعارك، حتى كان العربى يحارب ابن عمه و أقرب الناس إليه إذا لم يجد من يحاربه، يقول قائلهم:

---

[١٠٣] من معلقة الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى.

[١٠٤] سورة النحل/٥٨-٥٩.

و أحيانا على بكر أخيانا إذا بها لم نجد إلا أخانا[١٠٥]

و نتيجة لهذه المفاسد اضطربت الحياة الاجتماعية و ضاعت القيم الأخلاقية و قد صور جعفر بن أبى طالب الحالة السيئة التى كان عليها المجتمع العربى عندما قال أمام النجاشى.

كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، و نأكل الميتة و نأتى الفواحش و نقطع الأرحام و نسيء الجوار و يأكل القوى منا الضعيف.................. الخ[١٠٦].

لقد ضلت البشرية و انتشرت الخرافات، و كثرت الأوهام و عمت المفاسد و تطلع الجميع إلى قبس ساطع يكشف الحجب المسدولة على أعين الناس و الغلف المضروبة على قلوبهم فلا يكادون يبصرون منها طريق الحياة. و لم يكن ضلال المجتمع العربى بأقل من ضلال المجتمعات الأخرى و كان استقلال الإنسان بالتشريع الخلقى من الأسباب المباشرة لمعجزة عن التوفيق بين الفضيلة و السعادة، و تحقيق الانسجام و التوافق بين طبيعته المادية و الروحية، لأنة دائما إما يفنى لطبيعته الروحية المادية متجاهلا طبيعته الروحية.

---

[١٠٥] من قصيدة للفيض بن معمر.

[١٠٦] أنظر فى ذلك سيرة ابن هشام.

و ظهر الإسلام.... فقد رحم الله البشرية المعذبة فأذن للفجر الجديد أن تشرق أنواره و شمسه الساطعة أن تمحو آلام الناس و تتابع الوحي و اكتملت حلقات النور تخط على جبين البشرية و فوق قلبها نداء الخلد الأعظم: لا اله إلا الله محمد رسول الله.

و بدأ عهد جديد في تاريخ البشرية فقد أحدث الإسلام أثرة في النفوس كما يحدث الربيع أثرة في الحياة فغير عقائد الناس و أخلاقهم و اتجاهاتهم الفكرية و انتشلهم من وهاء الفساد إلى قمة الإصلاح و الصلاح و تحررت أراده الإنسان فأصبح حرا يأنف أن يكون عبدا لإنسان آخر، فلا يقبل الذل أو يرضى بالهوان أو يفعل الفواحش أو يرتكب الموبقات فأصبحى العربى الذى كان-منذ قبل-يقتل ابنته يقدم لأخيه في العقيدة أغلى ما عنده و أثمن ما يمتلك بل و يؤثره على نفسه و التاريخ خير شاهد على ذلك فها هو سعد بن الربيع يعرض نصف ماله و إحدى زوجاته على عبد الرحمن بن عوف كي يتزوجها بعد انقضاء عدتها، و لكن ابن عوف يرفض هذا العرض السخي الكبير، و يقول لأخيه في العقيدة:

بارك الله لك في أهلك و مالك و لكن دلني على السوق لأبيع و أشترى و قد سجل القرآن الكريم هذا الخلق النبيل(و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة و من يوقب شح نفسه فألئك هم المفلحون).

فهل شهد التاريخ في حقبة المتتابعة مثل هذا الخلق و السخاء النادر؟ و مما لا شك فيه أن هذا لم يحدث إلا بعد أن رأى الجميع اهتمام الإسلام بالأخلاق الفاضلة اهتماما كبيرا فقد حدد رسول الإسلام صلى الله علية و

سلم الهدف من بعثته و الغاية النبيلة التي جاء بها بقوله (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فكأن الرسالة الخالدة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة و بذل صاحبها جهدا كبيرا في مد شعاعها بين الخافقين، لا تنشد أكثر من تدعيم الفضائل الإنسانية و الرقي إلى مدارج الكمال ليصل الإنسان إلى غايته التي حددها الإسلام له و ليصل بخلقه الفاضل إلى جنات النعيم.

لقد أهتم الإسلام بالأخلاق اهتماما كبيرا لدرجة أن الله جل جلالة عندما أراد أن يقدم رسوله صلى الله علية و سلم للبشرية، بل وصفه بالخلق الكريم (و إنك لعلى خلق عظيم)[١٠٧] و تقول السيدة عائشة عندما سئلت عن خلق الرسول:(كان خلقة القرآن).

و الحقيقة أن المتتبع لكتاب الله تعالى و سنة رسوله صلى الله علية و سلم سواء في الحض على مكارم الأخلاق أو في بيان فضلها أو في توضيح أجرها و منزلتها و شمولها لجميع الجوانب و العلاقات الإنسانية و يجد ما يبهر العقول و يعجز الفكر البشري على استيعابه و معرفة أسراره و أثاره و لذلك حرص الرسول صلى الله علية و سلم على حث أمته على حسن الخلق و إظهار ثوابه و جزائه في الدنيا و الآخرة من ذلك ما روى عن السواس بن سمعان رضى الله عنة قال: سألني رسول الله صلى الله علية وسلم عن البر و الإثم فقال: (البر حسن الخلق و الإثم ما حاك في صدرك-

---

[١٠٧] سورة القلم/٤.

أي اثر فيه-و كرهت أن يطلع عليه الناس)[108] و عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله علية وسلم قال: (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، و إن الله يبغض الفاحش البذيء).

و النبي صلى الله علية وسلم يأمر المسلمين أن يبذلوا الخلق لكل الناس فيقول: (أتقى الله حيثما كنت، و اتبع السنة الحسنة تمحها، و خالق الناس بخلق حسن)[109].و قد جمع الله جل جلاله مكارم الأخلاق في قولة جل و علا (خذ العفو و آمر بالعرف و اعرض عن الجاهلين) [110].

أساس الأخلاق الإسلامية

يرى الإسلام أن الأساس الذى يقام علية صرح الأخلاق إنما يكون في العقيدة و التقوى، ذلكم إن التقوى دلالة دينية ترتكز على العقيدة و تشمل طاعة الله تعالى و الرغبة في ثوابه، كما تشمل خشيته تعالى و الخوف من عقابه. و هي بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية، إنها الأساس الوطيد الذى لا يتبدل و لا يتغير و لا يبيد و لا يخضع للأهواء و المقاييس الفردية أو المقاييس العامة أو يدخل تحت حكم العرف أو العقل الجمعي، و ما إلى ذلك فما يتحول و يتغير و يخضع للأهواء أو الأغراض. و ما من شك في أن الذى يتقى ربة يحبه و يطيعه و

---

[108] رواه مسلم و الترمذى و انظر ص ٢٠ من الأخلاق في التصور الإسلامى للدكتورة آمنة محمد نصير طبعة عام ١٩٨٥.

[109] رواه الترمذى.

[110] سورة الأعراف/١٩٩.

يعمل ما يستحق علية ثوابه و يكف عما ينزل به عقابه فيحيا في طهارة نفس و صلاح عمل و حسن تدبير، و إقبال على الخير و الحق، و بعد عن الشر و الرذيلة[111]-و لن يكون التقى-و هو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق و أن التقوى محورها-إلا كريما شجاعا عادلا أمينا عفيف اللسان صادق الوعد طاهر الثواب محبا للخير، صديقا للفضيلة، بعيدا عن الرذيلة، و بمقدار ما يتمتع به الإنسان من طاعة ربة و رعاية لحرماته و ضبط سلوكه و أسلوب حياته بمقدار ما يكون علية من الخلق الإنساني الكريم، فليست الأخلاق إلا الترجمة العملية للعقيدة و مظهرا صادقا للتقوى المستكنة في النفوس الإنسانية، و من هنا فإن من لم يعمر الإيمان قلبه بصدق و إخلاص و يتجه بعمله إلى الله على أساس من الأخلاق و التقوى-كان مخادعا في سلوكه منافقا في أخلاقه، و من هنا فإن الجنة لن تكون إلا لمن اتقى الله و استقام على منهج الله يقول تعالى: (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا)[112] و يقول تبارك و تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا و لا تحزنوا و ابشروا بالجنة التي كنتم توعدون)[113].

بل إن العبادات التي شرعت في الإسلام و اعتبرت أركانا في الأيمان به ليست طقوسا مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة و يكلفه بأعمال غامضة لا معنى لها، و إنما هي دربة و تمارين متكررة لتعريف

---

[111] ص٣٦ من أخلاق النبي د. أحمد الحوجي.

[112] سورة مريم/ ٦٣.

[113] سورة فصلت/ ٣٠.

المرء أن يحيا بأخلاق جميلة حسنة و أن يظل متمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت الظروف.

و القرآن الكريم و السنة المطهرة يكشفان بوضوح عن هذه الحقائق فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها (و أقيم الصلاة أن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر)[114] فالبعد عن الرذائل و التطهير من سوء القول و سوء العمل هو حقيقة الصلاة و الغاية منها و من هذا فإن الرسول الكريم يقدمها لنا في صورة رائعة تغرى النفس و تنيرها حماسا و تدفعها دفعا للقيام بهذه الصلاة (مثل الصلاة الخمس، كمثل نهر عذب مر بباب أحدهم. يقتحم فيه كل يوم خمس مرات. فما ترون ذلك يبقى من درنة؟ قالوا لا شيء: قال صلى الله علية وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن).

و الزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب بل هي-أولا-غرس المشاعر الحنان و الرأفة و توطيد لعلاقات التعارف و الألفة و توثيق لروابط المحبة بين الإنسان و أخيه الإنسان، و تقريب كبير بين شتى الطبقات و إزالة الفوارق-إلى حد ما-بين الغنى و الفقير و انتزاع الأحقاد من هذا الفقير و غرس المودة في قلبه لأخيه الغني، و قد بين الله جل جلاله الغاية من إخراج الزكاة بقوله (خذ من أموالهم صدقه تطهرهم و تزكيهم بها)[115].

---

[114] سورة العنكبوت/ ٤٥.

[115] سورة التوبة/ ١٠٣.

فتنظيف النفس من أدران النقص و التسامي بالمجتمع إلى مستوى أفضل هو الحكمة الأولى من إخراج هذه الفريضة، و من هنا نفهم لماذا أضح النبي صلى الله علية وسلم في دلالة كلمة الصدقة عندما قال: (تبسمك في وجه أخيك صدقة و أمرك بالمعروف و نهيك عن المنكر صدقة)[116].

و الصوم كذلك لم ينظر إلية الإسلام على أنه حرمان مؤقت من الطعام و من الشراب، بل اعتبره خطورة إلى حرمان النفس دائما من شهواتها المحظورة و نزواتها المنكورة[117]. و إقرار لهذا المعنى يقول الرسول صلى الله علية وسلم (من لم يدع قول الزور و العمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه و شرابه) فالهدف الأسمى للصوم هو شحذ الإرادة و تقوية العزيمة و تمرسها على الإذعان للحق و الصبر على المكاره، و التخلص من سلطان الهوى و الأنانية و حب الذات في سبيل المثل الأعلى، كما فيه معنى التراحم و التواصل الوجداني بين طبقات الأمة و تحقيق الإخاء الإنساني، و من هنا فإن الصوم مدرسة تربوية لها أثرها على النفس و الروح معا و لذلك فإن القرآن الكريم يذكر دائما بثمرة الصوم بقولة (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)[118].

و قد يحسب الإنسان أن السفر-من اجل الحج-إلى البقاع المقدسة رحلة مجردة عن المعاني الخلقية، و هذا خطأ لأن الله تعالى يقول في معرض

---

[116] البخاري.

[117] ص٦-٨ خلق المسلم للأستاذ الشيخ محمد الغزالي طبعه ثالثة بتصرف.

[118] سورة البقرة/ ١٨٣.

الحديث عن هذه الشعيرة (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث و لا فسوق و لا جدال في الحج و ما تفعلوا من خير يعلمه الله و تزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب)[119].و من هنا فبالحج يتحقق الطهر الإنساني و السمو الوجداني.

بهذه اللمحة الخاطفة عن غاية العبادات الإسلامية يتبين لنا ما تهدف إليه من تنمية الشعور الديني و تربية الضمير و الوجدان و تصفية النفس و تطهير القلب و رفعة الإنسان و التسامي به إلى الإيجابية في الحياة و تحقيق ذاتيته مع الله تعالى عبدا طائعا و مع الناس أخا وفيا، و مع المجتمع عاملا منتجا و مع نفسه صفاء و انسجاما و تماسكا و إحكاما فلا يركن إلى الخضوع و لا يخلد إلى الشيطان و لا يقبل الضيم و الهوان. و من ثم فقد وضح لنا-إذن- إن العبادات الإسلامية تقوم على أساس أخلاقي، بل ما فرضت فرضا على الإنسان إلا من أجل هذا الهدف النبيل و الغاية العظمى ولذلك فإن الإسلام يتخذ من التقوى ذلك المقياس الذي لا يختلف و لا يتغير، إنها معيار الفضل و مقياس الخير و ميزان العدل في الإسلام. و لذلك فإن القرآن الكريم يدفعنا دفعا إلى طريق التقوى و يبين أنه طريق الخير و الصلاح و الفلاح (و لو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض)[120].(ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب)[121].

[119] البقرة/ ١٩٧.

[120] سورة الأعراف/ ٩٦.

[121] سورة الطلاق/ ٢.

و ينبغي إلا يغيب عن افهامنا أن الأخلاق الإسلامية تفترق عن غيرها من الأخلاق الوضيعة في أنها أوامر واجبة التطبيق، فالقرآن الكريم حين يقدم لنا هذه الفضائل و الواجبات الأخلاقية إنما يقدمها على أنها أوامر واجبة النفاذ و النهوض بها فورا، لا على أنها نظريات قابلة للجدل أو المناقشة أو التردد، بل إن التقصير في تطبيقها على الوجه الذى رسمه الوحي يفقدها فعاليتها في تحقيق ما ترمي إليه من إسعاد الإنسان في دنياه و أخراه.

و بهذا المعنى كانت الأخلاق الإسلامية عملية و دور الإنسان حيالها هو الإخلاص التام في تطبيقها على الوجه الذى وردت به و عدم السماح لأى مصدر آخر في مزاحمة الوحي (إن الحكم إلا لله)[١٢٢]. (فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما)[١٢٣].

و إذا كانت أخلاقيات الإسلام واجبة التنفيذ لأنها من السماء إلا أنها مع ذلك جاءت لصلاح الإنسان و إصلاحه و كذلك لأن الإسلام دين الفطرة. فما من نظام يعالج الفطرة كما يعالجها الإسلام أو يستخلص من هذه الفطرة بعد تهذيبها و غرس الأخلاق فيها ما يستخلصه الإسلام. إن الإسلام يهتم بالكائن البشري فلا يغفل عن شئ يهتم بجسمه و عقله و روحه، حياته المادية و حياته الروحية و كما من نظام يعالج النفس البشرية بهذه الدقة و ذلك الشمول.

---

[١٢٢] سورة الأنعام/ ٥٧.

[١٢٣] سورة النساء/ ٦٥.

هناك نظم آمنت بجانب واحد من الكيان البشرى فراحت تعمل على تغذيته بما تراه صالحا له.

نظم آمنت بالجانب المحسوس من الإنسان و الحياة. كل ما تركه الحواس فهو حقيقة. و ما تركة فهو غير موجود أو ساقط من الحساب، و من ثم راحت هذه النظم تهتم بكل محسوس على الأرض، و تهتم بكل محسوس فى الكيان البشرى فحاولت أن تيسر له مأكله و ملبسه و مسكنه، و بسرة له قضاء الشهوات......ثم أغفلت من كيانه جانب الروح.

أهملت كل ما لا تدركه الحواس. أهملت الله و العقيدة و ما يشع من العقيدة من مثل و أخلاق.

و كانت النتيجة أن استمتع الناس بحياتهم الأرضية أعظم متاع و استفادوا بالتنظيمات من كل نوع: التنظيمات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و المادية ثم انهار المتاع كله نتيجة خواء الروح من الإيمان و خواء الحياة من العقيدة ، و انقلب المتاع السهل الحلو إلى التكالب على الشهوات: تكالب يقض المضجع و يكدر الحياة و يجعلها فى سباقا دائما لا ينقطع و لا يترك فرصة للراحة: راحة الجسد أو النفس أو الغير، و تزايد الصراع فما عاد صراعا فى باطن النفس، و لا صراع و دول و جيوش و طائرات و أساطيل و دمار رهيب يهدد وجه الأرض و نظم آمنت بالجانب الروحى من الإنسان.

آمنت بأن هذا الجانب هو جوهر الحق. و كل ما عداه خداع لا يثبت على حقيقة زبد يذهب جفاء.....و راحت تغذى الروح بما ترى أنه

غذاؤها الحق راحت تتعبد و تتنسك و تدفع الإنسان على ضرورات جسدها كلها و تقهر هذا الجسد لأنه دنس لا ينبغى أطاعته، و رجس لا ينبغى له أن يكون و استمتع الناس بحياة الروح. سبحوا فى ملكوتها الطليق، النظيف من أران الشهوات و حلقوا فى آفاق عليا من الأفكار و المشاعر الجميلة. . . ثم تمرد الجسد المكبوت على حنق الفطرة. و كفر الناس بمتاع الروح أو أصابتهم السلبية الخاملة التى لا تنتج شيئا فى واقع الأرض، لا تنشئ و لا تعمر، و لا تهدم و لا تبنى و لا تغير الباطل و لا تقيم الصحيح من الأوضاع.

كلاهما انحراف عن السبيل، كلاهما ينحرف بالإنسان عن الخلافة الحقة التى أرادها له خالقه يوم قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) الخلافة الراشدة العاملة بفطرة الله ومنهج الله.

والإسلام يجتمع بما يدركه الحواس و بما يقع خارج نطاق الحواس: يؤمن بالكيان المادى للإنسان كما يؤمن بكيانه الروحى و يوجه عنايته للوجود البشرى كله.

إن منهج الأخلاق الإسلامية فريد فى شموله لكل دقيقة من دقائق النفس البشرية و كل خالجة منها، و فريد فى أثره فى داخل النفس و فى واقع الحياة. . . . . .

و لقد كان من أثر هذا المنهج تلك الأمة الإسلامية الفريدة فى التاريخ و التى قامت من شتان متناثر لا يكاد يلتقى على غير الصراع و الحروب فإذا

هى أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها فى الأرض، تفتح و تغزو و تعمر و تبنى و تقيم مثلا أخلاقية و إنسانية غير معهودة من قبل و لا من بعد، و تنتشر فى السنوات قليلة فى بقاع الأرض، تنشر النور و تنشئ الحياة-بإذن ربها-من جديد.

هذه الأمة كلها من نزاح هذا المنهج كأنها، بماديتها و معنوياتها بمشاعرها و أفكارها و سلوكها و أعمالها....أمة فريدة فى التاريخ و صدق الله إذ يقول (الذين إن مكناهم فى الأرض فأقاموا الصلاة و أتوا الزكاة و امروا بالمعروف و نهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور)[١٢٤].

[١٢٤] سورة الحج/ ٤١.

ابن مسكويه و الأخلاق

تحدثنا-سابقا-عن آراء بعض الفلاسفة في شتى العصور-في مجال الأخلاق، و وقفنا على اتجاهاتهم المختلفة و جنوح نظرياتهم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، و يحسن بنا أن نتحدث عن الآراء الأخلاقية لبعض مفكري الإسلام كي تتضح الصورة أمام القارئ الكريم. هذا و من المعروف أن المتتبع لما كتبه الإسلاميون في الأخلاق يجده لا يعدو نمطين:

أحدهما: تسود النزعة الدينية و يتضاءل فيه نصيب البحث الفلسفي المطلق الجدير بأن يكون من قسم الأخلاق العملية التي تعنى ببيان الحقوق و الواجبات و ترسم المنهج العملي للمران على الفضائل دون أن تتصدى للبحث النظري و يمثل هذه النزعة الإمام الغزالي فيما كتبة عن الأخلاق في كتابة "إحياء علوم الدين" و الماوردي في كتابة "أدب الدنيا و الدين" و الكتابان غنيان بشهرتهما عن التعريف و الرجوع إليهما هين و ميسور.

و النمط الآخر: تسوده الروح الفلسفية بارزة الطابع تطلق العنان للعقل المجرد و لا تتصدى لربط أبحاثها بالعقائد الدينية و يمثل هذا التيار طائفة من فلاسفة المسلمين.

هذا و سوف نقتصر في حديثنا عن "ابن مسكويه" و "الإمام الغزالي".

ابن مسكويه

كان أبو على الخازن أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب بمسكويه أو "بابن مسكويه" لأن جده كان يسمى "مسكويه" و هو من علماء القرن الرابع الهجرى و طالت حياته فأدرك القرن الخامس و ولى بعض المناصب المهمة فى دولة "بنى بويه" و كان فوق نبوغه و طول باعة فى الفلسفة شاعرا أديبا و يقول أبو منصور الثعالبى صاحب كتاب يتيمة الهر:

إنه كان فى الذروة العليا من الفضل و الأدب و البلاغة و الشعر ومن أحسن ما ألف فى الأخلاق كتابة "تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراف" عنى فيه بتعريف النفس و خواصها و قواها كما سبقه بذلك "أفلاطون" من قبل غير أن "ابن مسكويه" أوفى البحث و بلغ الغاية فى التحقيق و التدقيق و هو فى فلسفته و أخلاقه إلى "أرسطو أميل"[١٢٥] فقد تأثر ابن مسكويه بأرسطو و من ناحية أخرى كان للإسلام الذى يدين به اثر كبير حيث صبغ أراءه عن الأخلاق بصبغة إسلامية جاءت مغايرة للمذهب الوضعى و لمذاهب اليهودية و المسيحية أيضا خاصة أنه رفض فكرة الانعزالية و الفردية المطلقة التى نادى بها بعض فلاسفة اليهود و أفلاطون من قبل، و طالب بأخلاق جديدة تقوم على الاجتماع و لا ممارسة الحياة و السيطرة على النفس و انطلاقا من اهتمام الإسلام بالعقل حتى جعله مناط التكليف و جعله نورا يميز به الإنسان الخير من الشر-كان اهتمام مسكويه بالعقل أيضا فرفع شأنه و أعلى قدره و أنزله مكانا عليا و جاءت مكانة الإنسان العالية كأثر لهذا العقل الذى منحة رب السماء لخليقته فى الأرض يقول مسكويه:

---

[١٢٥] أنظر ص٣٠ من أبحاث فى فلسفة الأخلاق: أبى بكر ذكرى.

"الإنسان من بنى سائر الموجودات له فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره و هو ما صدر عن قوته المميزة الروية فكل من كان تمييزه أصح و رويته أصدق و اختياره أفضل كان أكمل فى إنسانيته"[١٢٦].

و يتابع مسكويه فلاسفة اليونان و خاصة أرسطو و أفلاطون فى تقسيم النفس إلى ثلاث قوى :

١- القوة العاقلة و مركزها الرأى و لها فضيلة تتمثل فى الحكمة.

٢- القوة الغضبية و مكانتها القلب و فضيلتها الشجاعة.

٣- القوة الشهوانية و مركزها البطن و فضيلتها العفة.

و يرى مسكويه أنة ينبغى أن تسيطر القوة العاقلة حتى لا يذوب الإنسان إلى التهور أو إلى الشرور إذا ما قدر للقوتين الآخيريين السيطرة و كان يرى أن الغاية العظمى إنما تكمن فى فضيلة العدالة إذا كان هناك انسجام بين قوى الإنسان المختلفة و إذا تحققت هذه العدالة ضمت تحت جناحها الفضائل كلها يقول مسكويه:

"الفضائل كلها اعتدالات و العدالة أسم يشملها و يعمها كلها"[١٢٧]. و يرى مسكويه أن الباعث الأكبر للإنسان العاقل هى الخير و السعادة القصوى. و هى غاية الغايات التى يجب أن يوجه العقلاء إليها كل مجهوداتهم فى أمر سلوكهم فكل فعل يقرب منها فهو خير و كل فعل يبعد عنها فهو شر و يقول مسكويه:

---

[١٢٦] مسكويه ص١٥ تهذيب الأخلاق-طبعة عام١٣٢٩ هـ.

[١٢٧] المصدر السابق ص١٤٨.

"الخير هو المقصود من الكل و هو الغاية الأخيرة، و السعادة هي الخير بالإضافة إلى صاحبها و هي كمال له"[128].

و كان مسكويه يرى أن من الناس أخيارا بالطبع و إن قلوا، و هم لا يصيرون إلى الشر بحال، و أشرارا بالطبع لا يضيرون إلى الخير و لا يثمر فيهم التهذيب و بين هؤلاء و أولئك قوم ينتقلون بالتهذيب إلى الخير و بالإهمال أو العدوى إلى الشر و الغم.

و كان يرى أن الخير لا يأتي إذا عاش الإنسان بعيدا عن بني جنسه و لم يستعن بغيره، فالاجتماع-عنده-ضروري للتعاون على تحقيق الخيرات الممكنة و لذا فقد كان يرى أن من أول الواجبات تبادل المحبة بين أفراد المجتمع إذن بدون محبة لن ينتظم مجتمع، و يكاد ابن مسكويه يكون كماليا عصريا إذ يقول: و الإنسان لا يبلغ كماله إلا مع أبناء جنسه و بمعونتهم و يجب أن يكون علم الأخلاق مقررا لما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان في الجماعة ثم يقول: و لو لا ذلك لما تمن لهذا سعادته فيكون إذن كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن و قوام الإنسان بتمام أعضاء بدنه. و هو يقرر أن المحبة و جميع الفضائل لا أثر لها و لا فائدة منها في حياة العزلة التي يؤثرها الرهبان و النساك و المتوحدون الذين ينفردون بأنفسهم و هم مخدعون يحسبون أنهم من أهل الخير و ما هم بأهله.

---

[128] المرجع السابق ص٩٠.

و هكذا يرفض ابن مسكويه حياة العزلة و التحرر التى يمارسها الزهاد و الرهبان للحياة الاجتماعية و من هنا جاء نقده لمنهج الصوفية و مع هذا كله فقد وقع مسكويه فيما عابه عليهم فى نظرية المعرفة، فيذكر أن السعيد التام هو من توفر حظه من الحكمة فهو ينعم بروحانية من الملء الأعلى يتخذ منهم الطائف الحكمة و يستنير بالنور الإلهى و يكون مستعدا لقبول الفيض من المولى و لابد لذلك من صرف القصد إلى الأمور الإلهية و قطع كل صلة بالممسوسات حتى يصل إلى مرتبة الملائكة المقربين عن طريق العشق الإلهى من حيث أن السعادة الخالصة لله عز و جل ثم الملائكة ثم المتألهين[١٢٩].

و كان مسكويه يرى أن لكل ما جاء فى الشريعة الإسلامية من شعائر دينية إنما غايته تربية نفوس الناس على الفضائل لتقوية الإخاء العام و يظهر ذلك فى مثل الحج و صلاة الجماعة و فى الحث على محبة الجيران و يرى أن الشريعة الإسلامية لو فهمت على وجهها الصحيح لكانت مذهبا خلقيا أساسه محبة الإنسان للإنسان هذا و إننا نلحظ عند مسكويه جانبا هاما و هو الجانب الإسلامى فى فلسفته. ذلك الجانب الذى يرتكز على العمل أكثر من النظر كما نلحظ اتجاهه الاجتماعى النبيل حيث قرر أن الفضائل لا تحصل للذين تركوا مخالطة الناس لأن الناس ليست هى حياة زهد و إعراض و إنما هى حياة عمل و توافق بين مطالب الجسد و الروح إن هذا لا يتحقق إلا إذا عمل الإنسان و كان بين مجتمع و جماعات.

---

[١٢٩] انظر ص١٠٦ الأخلاق فى التصور الإسلامى د. آمنة نصير و الفلسفة الأخلاقية ص٣١٢ د. محمود صبحى طبعة سنة ١٩٦٩.

الأخلاق فى رأى الغزالى

الغزالى و نشأته

طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، تلك كلمة قالها الغزالى الذى شهد القرن الخامس الهجرى مولده عام ٤٥٠ هـ فى بلده طوس من أسرة فقيرة كانت تقطن بلده تسمى غزاله حيث اشتهرت بالفقه فكان عم الغزالى من كبار فقهاء عصرة و كان كذلك ابن عمه. أما والده فكان يعيش من كسب يده و كان كما يقول السبكى فى طبقاته يغزل الصوف و يبيعه فى دكانه بطوس فلما حضرته الوفاة أوصى به و بأخيه إلى صديق متصوف و أعطاه ما أدخره من مال يسير قائلا:

إن لى لتأسفا عظيما على عدم تعلم الخط و اشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين.

كان والد الغزالى إذن يعمل فى صناعة الصوف و كان مع ذلك محبا لعلماء الدين يتمنى أن يرى ما فاته فى ولد من أبنائه و قد حقق الله له ما أراد فأصبح ولده الغزالى من أكبر رجال الإسلام علما و خلقا فقد كان يحس ظمأ ملحا إلى الإيمان بحقائق ثابتة ترضى عقله و ترضى قلبه و ترضى روحه و ترضى المثل العليا التى ينشدها فى الحياة كان الغزالى يسهد ليله فى طلب الهدى و تلمس أبواب النور. و كانت جفونه تذبل و تتألم و هو يبحث وراء الصواب. و يطرق الأبواب الخفية التى تتلمسها الروح الضالة فى شوق و لهفة تظفر بحكمتها و غايتها و كان يحس ضالة الحياة بلا هدف و لا يقين:

و قد جعل دراسته للعلوم وسيلة من وسائل الإهداء، كما هى وسيلة من وسائل المعرفة، فتدبر الفقه طويلا و هو علم الأحكام و النظم الإسلامية و كان ينشر فيه الإيمان، و لكنه لم يجد فيه سكينه نفسه، لأن الغزالي المشبوب الروح الحار العواطف لا ترضية تلك المجادلات اللفظية و لا تلك إلا قيمه الجا .ة فهو لم يحس قلوب الفقهاء تخفق فيما كتبوا و لم يلمس أرواحهم ترفرف فيما دمجوا و هو يريد شيئا يرضى الروح و القلب.

و درس علم الكلام ليصل إلى الله. و لقنع نفسه بأدلته و يرضى قلبه بألحانه و نغمه و هو علم الشريعة و خلاصة فلسفتها و كنز مجدها، و لكنه وجد الكلاميين يذكرون الله و صفاته، تعالى الله و جلت صفاته-و كأنعم يقيمون بناء هندسيا أو يجرون عملية من عمليات الحساب في برودة الحاسبين و جمود عواطفهم-و أحاسيسهم و درس الفلسفة و هى مفخرة العقل البشرى ليرضى عقلة بآياته ثم يرضى يقينه برموزها، و لكن الفلسفة زادته نفورا من موازين العقل و نفورا من الاهتداء بوساطة هذا العقل[130].

و أخيرا اهتدى الغزالي إلى الطريق الصوفية فسار فيه و رفع أعلامه و حث على السير فيه فيقول:
إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة و أن سيرتهم أحسن السير و طريقهم أصوب الطرق و أخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء و حكمة الحكماء و علم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم و أخلاقهم و يبدلوه بما هو خير منه لم

---

[130] ص١٤٠ من أعلام التصوف الإسلامى ج ٢ طه عبد الباقى سرور نهضة مصر.

يجدوا إليه سبيلا فإن جميع حركاتهم و سكناتهم في ظاهرهم و باطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة و ليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.[131]

الأخلاق في نظر الغزالي

لقد أهتم الإمام الغزالي بالأخلاق اهتماما كبيرا و من يطالع التراث العظيم الذى خلفة للأجيال من بعده-يجد الطابع الخلقي في كثير من مؤلفاته، بل إنه كان يفرد أبوابا خاصة للحديث عن الفضائل الخلقية و لعل ما تركة في الجزء الثالث من موسعته العظيمة"إحياء علوم الدين" و كتابه "ميزان العمل" ما يؤيد و يثبت مدى اهتمام الغزالي بالأخلاق و كان يرى أن تغيير الخلق ممكن و يستشهد على رأيه هذا بحديث الرسول صلى الله علية وسلم (حسنوا أخلاقكم).

و كان الغزالي يرى أن قمة الأخلاق تكون في السعادة و الوصول إلى هذه السعادة يأتى بعد معرفة الله جل جلاله و لذا فقد وضع الغزالي نظرية في السعادة و هاك ملخصها.

---

[131] ص١٤٥-١٤٦ المنقذ من الضلال للغزالي تعليق الدكتور/ عبد الحليم محمود.

نظرية السعادة عند الغزالي

رتب الغزالي على نظريته في المعرفة نظريته في السعادة التي جعل فيها سعادة الإنسان و لذته إنما تكون في معرفة الله تعالى.

و هذه السعادة لا تدانيها سعادة أخرى، فليس هناك أجمل و لا أعظم و لا أمتع و لا أروع من معرفة الحق جل جلاله يقول الغزالي:
سعادة كل شيء لذته و راحته، و لذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه، و طبع كل شيء ما خلق له.

فلذة العين في الصور الحسنة، و لذة الأذن في الأصوات اللطيفة، و كذلك سائر الجوارح بهذه الصفة، و لذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه و تعالى لأنه مخلوق لها و كل ما لا يعرفه ابن أدم إذا عرفه فرح به مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها و لو ينهى عنها لم يتركها و لا ينبغي عنها بديلا، و كذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه و تعالى فرح بها و لم يصبر على المشاهدة لأن لذة القلب المعرفة و كلما كانت المعرفة اكبر كانت اللذة اكبر، و لذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح و لو عرف المليك لكان الفرح اعظم فرحا، و ليس موجودا أشرف من الله سبحانه و تعالي، لأن شرف كل موجود به و منه و كل عجائب العالم أثر من آثار صنعه فلا معرفة اعز من معرفته و لا لذة اعظم من لذة معرفته و ليس منظر أحسن من منظر حضرته و كل شهوات الدنيا متعلقة بالنفس و هي تبطل بالموت، و لذة معرفة الله متعلقة بالقلب

فلا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته و ضوءه اكبر لأنة فرج من الظلمة إلى النور[١٣٢].

و يرى الغزالى أن عين القلب تستطيع معرفة الله و مشاهدة جمال حضرته إذا أخلص الإنسان الجهاد و الرياضة و تخلص من الشهوة و الغضب و سائر الأخلاق المذمومة فإذا افتح الإنسان عين باطنة و داب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه حتى تصبح و لا خير له إلى نفسه و لا من العالم و لا شى يملك عليه باطنة غير مشاهدة الذات الإلهية فهنالك تتفتح عين القلب و يصبح الإنسان قادرا على أن يبصر فى اليقظة ما يراه فى النوم، و هنالك يشاهد الحقائق العليا و المناظر الجميلة الجليلة التى لا يمكن شرحها و وصفها و نكشف له ملكوت السماوات و الأرض[١٣٣].

هذه خلاصة نظرية الإمام الغزالى فى السعادة التى ترتبت على المعرفة كما يصورها فى رسالته الصغيرة "كيمياء السعادة" و هى الرسالة التى تبين أن الغزالى اتخذ من عنوانها تعبيرا صادقا عن كيمياء السعادة الباطنة التى تقابل الكيمياء الظاهرية.

إذ كما توجد الكيمياء الظاهرية فى خزائن الملوك لا فى خزائن العوام فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا فى خزائن الله تعالى و لا تلتمس إلا من حضرة النبوة و كل من طلبها من غير هدفا الطريق فقد اخطأ السبيل.

---

[١٣٢] ص١٨-١٩كيمياء السعادة للغزالى مطبعة مصر سنه ١٣٤٣ه.

[١٣٣] المرجع السابق.

و من هنا كان لابد لمن يريد أن يظفر بهذه السعادة أن يتعرف من صفات النقص و يتحلى بكل صفات الكمال.

الجانب العملي

من

الأخلاق

مراقبة الله تعالي

أمـــا الدعامـــة الـــثانية " فهي مراقبة الله تعالي " وهي كدعامـــة (الـــزهد) تنبع من القرآن الكريم والسنة المطهرة وحيـــاة رســـول الله صـــلي الله عليه وسلم في وقاع سيرته الكريمة ، وحياة أصحابهم في تطبيقهم السلوكي لما شاهدوه مـــن حياته صلي الله عليه وسلم وعلموه من القرآن الكريم ، حياة تلاميذهم من التابعين .

وسبيلنا في هذا هو سبيلنا في (الزهد) نسوق النصوص والحوادث ، ونصور النماذج في وقائعها البارزة حتى تتبين لـــنا وقائع الطريق في فهم الإسلام ونتبين أن هذا الحلف هو في حقيقته العملية التي كان عليها رسول الله صلي الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان روح الإسلام وخلاصة آدابه السامية التي تمثلت عملا في أخلاق المسلمين الأولين .

نزل القرآن الكريم علي سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم هاديا مرشدا ، ومؤدبا مهذبا ، ومشرعا معلما ، وله في ذلك كلـــه طـــرائقه الخاصـــة التي توقظ العقول وتنبه القلوب ، وتحـــرك الضـــمائر حـــتى تقع هدايته وإرشاده موانعها من

أغرار النفس الإنسانية ، ويقع أدبه وتهذيبه من القلوب موقع الرضـــا والقـــبول ، ويقع تشريعه وتعليمه من العقول موقع الحكمة المرغبة في الامتثال ــ وهو في إطار الهداية العامة والخاصـــة ــ آمرناه ، موعد واعد ، مرغب مرهب ، داع محـــذر يقصد إلي التحبيب في الخير ، والتنفير من الشر ، توجيها للحياة وجهة الإصلاح .

ونراه ربط الأمر بالوعد ، والنهي بالوعيد بيانا لمنزلتي الـــثواب والعقاب ، اللذين جعلها الله في طبائع الناس حوافز للاستجابة ، وحوافز دون الاقتحام ، والنفوس الإنسانية واقعة بيـــن شراهة الغرائز ومنطق العقل وإشراق الروح (ونفس ومـــا سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خـــاب من دساها) ولابد لها لكي تستجيب إلي منطق العقل وتتغـــلب عـــلي شـــراهة الغرائز وترقي إلي أفق الإشراق الـــروحي مـــن قـــوة قاهرة تزعجها حتى لا تستكين وتستلم لدواعي الغرائز وقد جعل الله لها هذه القوة القاهرة في داخل ذاتهـــا ، تـــلك هـــي قوة الضمير ، وهذا الضمير هو مهبط الإلهـــام ، فإذا استيقظ هذا الضمير في داخل النفس الإنسانية استشعرت مراقبة الله ، واستحضرت عظمته وعلمه المحيط ، وتمثـــلت قوته وقهره ، وأنه المالك لنواصي العباد الرقيب عليهم المحصي لأعمالهم ، الذي لا يخفي عليه خافية (ويعلم مـــا في أنفسكم فاحـــذروه) (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تـــبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض

والله علي كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرا محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) إذا استشعرت النفس الإنسانية ذلك ، واستحضر العاملون في الحياة عظمة الله ، واطلاعه علي علانيتهم وسريرتهم وأنهم موقوفون بين يديه ، مسئولون عن أعمالهم ، محاسبون علي ما قدموا من آثار في حياتهم مجزيون علي الخير خيرا وثوابا ، وعلي الشر نكالا وعقابا إذا استحضرت ذلك كانت في عملها مراقبة لله تعالي ، تحذر بطشه وعقابه وترجو رضاه وثوابه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفي بنا حاسبين)

واستحضار عظمة الله تعالي ومراقبته عند أي عمل يقوم به الإنسان هو الإحسان الذي بينه النبي صلي الله عليه وسلم في حديث جبريل فقال (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) والعبادة في الإسلام كل عمل يأتي به المؤمن علي وجه الإخلاص والمراقبة لله تعالي (إنما الأعمال بالنيات) سواء أكان هذا العمل من أعمال الدنيا وإصلاح الحياة ، أو كان من عمل الآخرة وتهذيب النفس وتطهير القلب وتصفية النفوس ، وهذا معني قول الله تعالي (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا للدين ألا لله

الديــن الخــالص) والآية عامة تتناول جميع التكاليف التي أنزل بها الكتاب من الأوامر والنواهي ، فمن راقب الله وألزم قلــبه في جميع أعماله أن الله تعالي يراه في سره وعلانيته اســتحيا مــن جلال الله أن يراه ربه علي ما لا يحبه منه ، فيســتنير قلــبه ويسكنه الخوف من بطش الله ، ويدوم عليه الحذر من سخطه ، وغضبه ، مشفقا علي نفسه معظما لأمر الله ، لا تــأخذه فــي الله لومة لائم ، لا يرعى في عمله إلا جلال الله وعظمته حتى يصغر في عينه كل مخلوق دون الله تعالي .

روي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مر في إحدى سفراته بغلام يرعى غنما ، فقال له تبيع من هذه الغنم واحدة ، فقال الغلام : إنها ليست لي فقال ابن عمر ــ يمتحن أمانته قل لصاحبها : إن الذئب أخذ منها واحدة ، فقال الغلام : فأين الله ؟ فكان ابن عمر زمنا طويلا يردد علي نفسه قول الغلام : فأين الله ؟

ومراقــبة الله فــي الســر والعــلن مــنزلة من منازل المخلصين الأولين ، وفيها يقول بعضهم : من راقب الله في خواطره عصمه الله من جوارحه.

وآيات المراقبة لجلال الله تعالي باستحضار علمه المحيط بســرائر خلقه واستحضار خشيته جاءت في القرآن الكريم بأساليب متنوعة وأفانين مختلفة لتجذب النفوس إلي مسالكها

، ونحن نورد منها ما يأتي :

١ ـــ يقـــول الله تعـــالي (إن الله لا يخفـــي عليه شيء في الأرض ولا فـــي السـماء هـــو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

٢ ـــ ويقـــول الله عـــز شأنه (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفـــوه يحاســـبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله علي كل شيء قدير) .

٣ ـــ ويقول تبارك وتعالي (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تـــبدوه يعـــلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله علي كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما علمت من خيرا محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بيـــنها وبيـــنه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد)

٤ ـــ ويقول جل جلاله (لا يتخذ المؤمنون الكافرون أولياء مـــن دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شـــيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلي الله المصير)

٥ ـــ ويقـــول عـــز وجهه (يا أيّها الناس اتقوا ربكم الذي خـــلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجـــالا كـــثيرا ونســـاء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) .

٦ ـــ ويقـــول عـــز شـــأنه في وصف حال أهل مراقبته (والذيـــن يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلي ربهم

راجعون) ومعني ذلك في حديث عائشة أم المؤمنين رضـــي الله عنها ، قالت سألت رسول الله صلي الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله (الذين يؤتون ما آتوا وقــلوبهم وجلة) هو الذي يزني ويسرق ويشرب ؟ فقــال النــبي صلي الله عليه وسلم : (لا ، ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه)

٧ ــ ويقــول عــز من قائل (ألم يعلما أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)

٨ ــ ويقول تعالي (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)

٩ ــ ويقــول جــل شأنه (إن في ذلك لذكري لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو رشيد)

١٠ ــ ويقــول تبارك وتعالي (فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشــر المخبــتين الذيــن إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصــابرين علي ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

١١ ــ ويقــول تعالي (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم)

١٢ ــ ويقــول ســبحانه (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجــلت قــلوبهم وإذا تليت آياته زادتهم إيمانا وعلي ربهم يتوكلون)

١٣ ــ ويقــول عز وجهه (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهــم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدني من ذلك

ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه)

١٤ ــ ويقــول تعالي (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قــرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضــون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين)

هذه آيات من القرآن الكريم سقناها كنماذج لرعاية مقام المراقــبة ، وهــو مقام له شأنه العظيم عند المسلمين ، وهو ركن من أركان الأخلاق في الإسلام " نادي به القرآن وأكثر مــن التنــبيه عــليه وجعله أساس الإيمان الصحيح ومدخل الإخلاص إلي قلوب العابدين .

وهــو من أوسع المقامات ، يبدأ بالتوبة العامة من عامة المخالفات الشرعية وهذه توبة عامة ، أما توبة الخاصة فهي التــبرؤ مــن الاغيار والمعوقات عن سير النفس إلي منازل التبتل والانقطاع عن الخلق .

وهناك توبة خاصة الخاصة ، وهي عدم الالتفات إلي ما كــان ومــا يكون تعبدا وخشية ، وهذا ما يرمز إليه الحديث الصحيح في قوله صلي الله عليه وسلم (إني لأستغفر الله في اليــوم مائــة مرة) وهذا استغفار شكر ومراقبة لجلال الله وعظمــته ، لأنــه صلي الله عليه وسلم أعرف الخلق بربه

وأخشـــاهم له ، وقـــد روي من حديث عائشة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم صنع شيئا ترخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلي الله عليه وسلم فحمد الله ثم قال ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

وكان صلي الله عليه وسلم يقول لأصحابه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء علي الفـــرش ، ولخرجـــتم إلي الصعدات تجأرون إلي الله ، وفي حديـــث عـــبد الله بن الشخير أنه قال : أتيت النبي صلي الله عليه وسلم وهو يصلي ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

وهذه جملة من الأحاديث تدل علي كثير من المعاني التي أشرنا إليها في عناصر " التصوف العملي " .

عـــن أبـــي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (إن الله عز وجل قال من آذى لي وليا فقـــد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حـــتى أحـــبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الـــذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بهـــا ، فلـــئن عـــبدي أعطيته ، ولئن أستعاذنى أعذته ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض عبدي المؤمن يكـــره المـــوت وأكره إساءته ـــ أو مساءته) وهذا الحديث

الصـــحيح من أقوى ما يتمسك به القوم في دعم طريقهم إلي الله بالسنة المطهرة .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صـــلي الله عـــليه وسلم (إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنـــبياء ولا شـــهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل) فقال رجل من هم وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم ، قال : (قوم يتحابون بروح الله عز وجل ، من غيـــر أرحـــام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها بينهم ، والله إن وجوههـــم لنور ، وإنهم لعلي منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس) ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

وعـــن عمـــرو بن الجموح رضي الله عنه قال : سمعت رســـول الله صلي الله عليه وسلم يقول (قال الله عز وجل ، إن أوليـــائي مـــن عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم)

وعـــن ابـــن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلي الله عـــليه وسلم (إن لله عز وجل ضنائن من عباده يغذيهم في رحمـــته ، ويحيهم في عافيته ، إذا توفاهم توفاهم في جنته ، ألئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها في عافية)

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : قـــال مر عمر بمعاذ بن جبل رضي الله عنه وهو يبكي ، فقـــال ما يبكيك يا معاذ ؟ فقال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول (أحب العباد إلي الله تعالي الأتقياء الأخفياء الذيـــن إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا شهدوا لم يعرفوا ، أولئك أئمة الهدي ومصابيح العلم)

عن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول والله إني لأول رمي بسهم في سبيل الله عـــز وجـــل ، ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلي الله عليه وســـلم مـــا لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا السمر حتى قرحت أشداقنا ، وحتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاه ماله خلط .

وعـــن حذيفـــة بن اليمان قال : قال رسول الله صلي الله عـــليه وسلم (يا حذيفة إن في كل طائفة من أمتي قوما شعثا غـــبرا إيـــاي يريدون وإياي يتبعون ، وكتاب الله يقيمون ، أولئك مني وأنا منهم وإن لم يروني)

وعـــن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صـــلي الله عليه وسلم (من سأل عني أو سره أن ينظر إلـــي فلينظر إلي أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة علي لبنة أو قصـــبة عـــلي قصـــبة ، رفع له علم فسمر إليه ، اليوم المضمار وغدا السباق والغاية الجنة أو النار)

وأخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه مر برسول الله صلي الله عليه وسلم فقال له النبي صلي الله عليه وسلم كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم : أنظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : كأني أنظر إلي عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلي أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلي أهل النار يتضاغون فيها ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم : يا حارث عرفت فالزم ، عرفت فالزم ، عرفت فألزم .

وفي رواية أن النبي صلي الله عليه وسلم قال له : مؤمن نور الله قلبه . ومن طريق عبد الرزاق ، زاد فيه أن حارثة قال للنبي صلي الله عليه وسلم : أدع الله لي بالشهادة ، فدعا له ، فأغير علي سرح المدينة فخرج حارثة فقاتل فقتل .

وأخرج الفريابي قال : سئل النبي صلي الله عليه وسلم عن هذه الآية : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا : كيف يشرح صدره ؟ قال : (نور يقذف به فيه فينشرح له وينفسح) قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : (الإنابة إلي دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت) .

وعـن علي كرم الله وجهه أنه صلي الغداة ، ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كآبه ، فسأله بعـض أصـحابه عن حاله تلك ؟ فقال : لقد رأيت أثرا من أصـحاب رسـول الله صلي الله عليه وسلم ، فما أري أحدا يشـبههم ، والله إن كـانوا ليصبحوا شعثا غبرا صفرا بين أعيـنهم مـثل ركـب المغـزى ، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، إذ ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح ، فانهملت أعينهم تبل والله ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

وفـي حديث البراء بن مالك يقول النبي صلي الله عليه وسلم (رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس) وفي رواية (مدفوع عن الأبواب) وفي أخرى (لا يؤبه له لو أقسم علي الله لأبره ، منهم البراء بن مالك)

وفـي حديث إبراهيم بن أدهم عن عباد بن كثير بن قيس قـال : جاء رجل عليه بردة له ، فقعد إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ثم جاء رجل عليه أطمار فقعد ، فقام الغني بثيابه يضمها إليه ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم : (أكل هـذا تقـذرا من أخيك المسلم ؟ أكنت تحسب أن يصيبه من غـناك شـيء أو يصـيبك من فقره شيء ؟) فقال الغني : معذرة إلي الله وإلي رسوله من نفس أمارة بالسوء وشيطان يكيـدني ، أشـهدك يا رسول الله أن نصف مالي له ، فقال

الـــرجل الفقيـــر : ما أريد ذاك ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم : لم ذاك ؟ قال : أخاف أن يفسد قلبي كما أفسده .

ومقام المراقبة مفتاح لجميع المقامات الصوفية ، يندرج تحـــته مقامـــات الصـــبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والـــتوكل ، والإخـــلاص ، والحياء ، والرضا ، والتسليم ، والبذل ، والشفقة علي الخلق ، وغيرها .

وللصـــحابة رضوان الله عليهم في مقام المراقبة منازل خصوا بها تأسيا برسول الله صلي الله عليه وسلم ، فالصديق كان من شدة مراقبته لله يشم من جوفه رائحة الكبد المشوى ، وكان كثيرا ما يري آخذا بلسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

ويـــروي عـــنه أنه كان له مملوك يغل عليه ، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ، ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني علي ذلك الجوع ، مـــن أين جئت بهذا ؟ قال مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني ، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني ، قال : إن كدت أن تهلكني ، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقيل له إن هذه لا تخرج إلا بالماء ، فدعا بطشت من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتي رمي بهـــا ، فقيل له يرحمك الله ، أكل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ قـــال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها ، سمعت رسول

الله صلي الله عليه وسلم يقول : (كل جسد نبت بالسحت فالنار أولي به) فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة .

ومن حديث عائشة رضي الله عنها قالت : لبست مرة درعا لي جديدا ، فجعلت أنظر إليه وأعجب به ، فقال أبو بكر ما تنظرين ؟ إن الله ليس بناظر إليك ، قلت ومم ذاك ؟ قال : أما علمتي أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ، قالت فنزعته وتصدقت به ، فقال أبو بكر عسي ذلك أن يكفر عنك .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد التعلق بأخلاق رسول الله صلي الله عليه وسلم وحب التأسي به في سائر أحواله ، روي أنه لما أتسع علا الناس الرزق في عهده ، وكثر المال قالت له ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها يا أمير المؤمنين لو لبثت اليوم ثوبا هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك ؟ فقد وسع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير ، فقال لها إني سأخاصمك إلي نفسك ، أما تذكرين ما كان يلقي رسول الله صلي الله عليه وسلم من قسوة العيش ، فمازال يذكرها حتى أبكاها فقال لها : والله إن قلت ذلك ، أما والله لئن استطعت لأشاركهما ــ يعني النبي صلي الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه ــ بمثل عيشهما الشديد لعلي أدرك

معهما عيشهما الرخي ، وكان رضي الله عنه إذا نزل بالناس هـم يكـاد يهلك من الحزن اهتماما بأمرهم ، فيخلع ثيابه ، ويلـبس ثوبـا قصيرا ، لا يكاد يبلغ ركبته ، ثم يرفع ثوبه بالبكاء والاستغفار وعيناه تزرفان حتى يغشي عليه .

ومما يروي عنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شـدة مراقبته لله تعالي أنه دخل السوق ذات يوم فرأي رجل يقال له سلمة قاعدا في السوق ، فقال له : هكذا يا سلمة عن الطـريق ، وسكت عنه عمر حتى إذا كان العام المقبل لقيه في السوق فقال له : يا سلمة أردت الحج العام ؟ قال سلمة : نعـم ، فأخذه بيده حتى أدخله معه بيته ، فأخرج له كيسا به سـتمائة درهم ، فقال له : يا سلمة خذها وأستعين بها علي حجـك ، وأعلم أنها من الغفقة التي غفقتك عاما أول ، قال سـلمة : يـا أمير المؤمنين والله ما ذكرتها حتى ذكرتنيها ، فقال عمر : وأنا والله ما نسيتها .

ويروي أن عليا كرم الله وجهه ـ وكان معه الحسن والحسـين ـ لقـي عمر في بعض طرق المدينة فسلم عليه وأخـذ بيـده ، والحسـن والحسـين يكتنفاهما عن يمينهما وشمالهما فبكي عمر،فقال له علي رضي الله عنة : ما يبكيك يـا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : ومن أحق بالبكاء مني وقد وليت أمر هذه الأمة أحكم فيها وأدري أمسيء أنا أم محسن ؟ فقـال له علي : والله إنك لتعدل في كذا ، وتعدل في كذا ،

يعدد له محاسنه في سياسته للرعية ، فما منعه ذلك من البكاء ، ثم تكلم الحسن ، فذكر من ولاية عمر وعدله فلم يمنعه ذلك مـــن البكاء ، فتكلم الحسين بمثل كلام الحسن ، فلنقطع بكاء عمـــر عند كلام الحسين ، ثم قال لهما أتشهدان بذلك يا ابني أخي ، فسكتا فنظرا إلي أبيهما فقال علي : اشهدا وأنا معكما شهيد .

وكـــان عمـــر رضـــي الله عنه يمر علي الناس متسترا ليـــتعرف أخبار رعيته ، فمر بعجوز في خبائها فسلم عليها وقـــال لها : ما فعل عمر ؟ قالت : لا جزاه الله عني خيرا ، قـــال لهـــا : ولم ؟ قالت : لأنه والله ما نالني من عطائه منذ ولـــي أمر المؤمنين دينار ولا درهم ، فقال لها : وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع ، قالت سبحان الله ، والله ما ظننت أن أحدا يلي علي الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغـــربها ، فـــبكي عمـــر وقال لها : يا أمة الله بكم تبيعني ظلامـــك من عمر ؟ فإني أرحمه من النار ، فقالت : لا تهزأ بـــنا يـــرحمك الله ، فقال لها لست بهزاء ، فلم يزل بها حتى أشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا ، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فوضعت يدها علي رأسها وقـــالت : وأسوأتاه ؟ شتمت أمير المؤمنين في وجهه ، فقال لهـــا عمر : لا بأس عليك رحمك الله ، ثم طلب رقعة يكتب فيهـــا فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها " بسم الله

الرحمن الرحيم " هذا ما اشتري عمر من فلانة ظلامتها منذ ولـــي إلي يوم كذا وكذا بخمسة وعشرون دينارا ، فما تدعي عــند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالي فعمر منه برئ " شـــهد عـــلي ذلك علي بن أبي طالب وابن مسعود ، ثم رفع الكتاب إلي ولده وقال : إذا أنا مت فأجعله في كفني ألقي به ربي .

العــــــدل

العدل في اللغة :

قال صاحب لسان العرب : العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور ، عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلا وهو عادل من قوم عدول وعدل ...

وفي أسماء الله سبحانه العدل هو الذي لا يميل به الهوي فيجور في الحكم .

والعدل في الاصطلاح :

هو توفير حق الغير واستيفاء الحق فيه (١)

والعدل فضيلة من أمهات الفضائل التي يقوم عليها سعادة الفــرد والمجــتمع وصـــلاحهما ، فهو رأس الفضائل رأس المكارم .

وفي القرآن الكريم من الآيات القرآنية التي توضح دور العدل في بناء المجتمع ففيه (أن الله يأمر بالعدل والاحسان ...) الآية (٢)

وفيه (وما ربك بظلام للعبيد) (٣)

ومنه قوله تعالي (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٣٠١ .

(٢) سورة النحل آية ٩٠ (٣) سورة النساء آية ٥٨

ونهـــي نبينا محمد ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ عن الظلم في أكثر من مناسبة (اتقوا الظلم فأن الظلم ظلمات يوم القيامة)

وفـــي الحديـــث الشريف أيضا (ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء) ويقول الرب :
وعزتي وجلالي لانصرنك ولو بعد حين .

وفي الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم علي نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظلموا ...)

كمـــا توعد الله ـــ عز وجل ـــ الظالم في الدنيا والآخرة فقال في حديثه القدسي (وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله)

بل أنه توعد بالانتقام من كل من رأي مظلوما وتمكن من نصـــرته ولم ينصره فقال (... ولأنتقمن ممن رأي مظلوما فقدر أن ينصره فلم يفعل)
ومن هنا قال بعضهم :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا
فالظلم مصدره يفضي إلي الندم
تنام عيناك والمهزوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنـــم

ـــدا والعـــدل لن يتحقق إلا إذا أعطي كل ذي حق حقه ومـــن هنا كان اختيارنا للتعريف الاصطلاحي السالف الذكر وهـــو توفير حق الغير ... ذلك لأن الإنسان الذي لا يعرف الحقـــوق أو الواجبات فكيف يتأتى له أن يعطي كل ذي حق حقه .

لابد أن تكون لديه معرفة كاملة بما هو حق لهذا وما هو واجـــب لـــذاك يضـــاف إلـــي ذلك وجوب التجرد من كل الأغـــراض الشخصية ولا يتحيز لفئه علي فئه أو الفرد علي آخـــر ، بـــل لابد أن يكون كل الناس لديه سواء في الحقوق والواجـــبات لا فضـــل لأحد علي غيره عندما يلتزم الإنسان بهـــذا المـــنهج ــ أعني وضع الأمور في نصابها يقال عنه فلان من الناس عادل .

وعـــندما توجد الأحكام العادلة في المجتمع بحيث يطمئن كل فرد فيه علي حقوقه ويشعر بالأمان والطمأنينة علي نفسه ومن يعول نقول هذا مجتمع عادل .

مجالات العدل :

للعدل مجالات كثيرة أهمها :

١ ــ العـــدل مع النفس والعدل مع النفس يتشعب إلي أمور كـــثيرة ويجمعها قولنا السابق توفير جميع حقوقها في حـــدود الامكانات المتاحة لها واستيفاء الحق منها ــ ونعـــني بتوفير جميع الحقوق لها أي التي أباحها الله عـــز وجل من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وهدوء وراحة ففي الحديث (وإن لبدنك عليك حقا)

٢ ـ العـــدل مع الله ـ عز وجل ـ : وذلك بأن يعرف ما لله من حقوق وأوامر فيؤديها علي أكمل وجه وكذلك لا يـــأتي بأمر من الأمور التي نها الله عنها . وإن لم يكن عادلا مع الله فسيكون ظالما وظلمه عندئذ لن يقع إلا علي نفسه .

٣ ـ العـــدل مـــع الـــناس : ويدخـــل في هؤلاء الزوجة والأقارب ـ والأنبياء ـ والجيران في السكن والعمل وما إلي ذلك ..

وواجـــب الإنســـان مع كل هؤلاء جميعا أن يحدد حقوق لديهـــم ويلزمهم بالقيام بما يجب له عليهم ولا يتهاون في أي حـــق من حقوقه وذلك لتأتي له معرفة حقوقهم وإعطائها لهم من منطلق (توفير حق الغير واستيفاء الحق منه)

هـــذا والقـــرآن يؤكد في أكثر من آية بضرورة مراعاة العدل حتى في معاملة الأعداء اقرأ معي قوله تعالي :

(ولا يجـــر منكم شنآن قوم علي ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى)[1]

كـــل هذا التشديد خوفا من الظلم أو لظلم يحدث الاضطراب بيـــن الأفراد والجماعات وينشر الرعب والخوف والفساد بل يحيـــل حيـــاة الإنسان إلي جحيم لا يطاق ، ففي ظله يظهر النفاق وفي رحابه يزداد الشباق ، وتشتد الخصومات وتختفي الفضائل .

---

(١) سورة المائدة آية ٨

فمـــا انتشـــر الصـــنم في قرية ألا ومرها ولا في أمة إلا أهلكها ولا في أسرة إلا أفناها وبددها .

تـــأمل معي ما حدث لقوم لوط وتدبر قوله تعالي (فلما جـــاء أمـــرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود)[1]. حتى قيل بأن أهل السماء سمعوا صراخ الديكـــة ونـــباح الكلاب من جراء قلبها وجعل عاليها سافلها وإرســـال الحجـــارة الصلبة المشبهة بالمطر عليهم متتابعة بعضها أثر بعض [1]

ثـــم تأمل ما حدث لقوم عاد القرية التي أرسل الله عليهم الريح التي لا خير فيها ولا بركة لم تترك شيئا أتت عليه إلا جعلـــته كالهشيم يقول الله تعالي (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم)[3]

ثـــم أنظـــر لما حدث لقوم ثمود الذين ظلموا وبغوا في الأرض كان جزاؤهم أن أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون وما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين كل هذا بسبب ظلمهم وطغيانهم وما ظلمناهم ولكن كانوا بأنفسهم يظلمون [4]

---

(١) الآية ٨٢ من سورة هود .

(٢) صفوة التفاسير ج ٦ ص ٦١٢ .

(٣) سورة الذاريات آية ٤١ ، ٤٢ .

(٤) صفوة التفاسير ج ١٧ ص ١٤٢٠ .

الصبـــــر

حقيقته

العلماء مختلفون في تعريف هذه الفضيلة اختلافاً كبيرا ، وهذا عرض وجيز لتعريفهم ، ثم تعقيب عليه بما أراه .

١ ـــ فهـــو كما قال الغزالي الصبر علي الأذى ، واحتمال الجفـــاء ، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك علي سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الأذى [١]

وقـــال في موضع آخر إن الصبر ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهو ضربان :

بدنـــي كـــتحمل المشـــاق في الأعمال والعبادات ، وهو محمود إذا وافق الشرع .

وضـــرب آخـــر هو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى .

فإن كان صبرا علي شهوة البطن والفرج سمي عفة .

وإن كـــان علي احتمال مكروه في مصيبة سمي صبرا ، وضده الجزع والهلع .

وإن كـــان في احتمال الغني سمي ضبط النفس ، وضده بطر .

وإن كان في حرب سمي شجاعة ، وضده الجبن .

وإن كان في كظم الغيظ سمي حلما ، وضده التذمر .

---

(١) الاحياء ٦١/٢

وإن كان في نائبة من نوائب الدهر سمي سعة الصدر ، وضده الضجر والتبرم .

وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر .

وإن كـان عـن فضـول العيـش سمي زهداً ، وضده الحرص .

وإن كـان عـلي قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، وضده الشره .

فأكـثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر ، ولذلك لما سئل النبي عن الإيمان مرة قال : " هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال : " الحج عرفه "

ويتـبين مـن هذا أن الإمام الغزالي قصر الصبر علي بعـض مـا تدل عليه الكلمة من صبر علي الأذى واحتمال المكـروه ، ثـم توسـع فـي دلالتها توسعاً شمل كثيرا من الفضـائل كالعفـة والشـجاعة والحلم وكتمان السر والزهد والقناعة .

والحقيقـة أن بعـض الفضائل متشابكة متداخلة كالصبر والحلم ، وبعضها أوسع نطاقاً ، كالعدل فإنه يشمل الأمانة ، وكالعفـة فإنهـا أشمل من القناعة ، ولكن هذا لا يقتضي أن ندمج فضيلة في أخرى .

فـنجعل العفـة والشجاعة والزهد وكتمان السر صبرا ، لأن هـذا الإدمـاج يفقـد بعض الفضائل كيانها واستقلالها وإيحاءها الخاص ، وليس من الصواب أن نتكلف فنحشد عدة فضائل في فضيلة ، أو نحشد الفضائل كلها في فضيلة واحدة

٢ ــ وقال بولزن الألماني : الصبر هو احتمال الآلام بدون أن تذهـب بـنفس الشخص ، وهو نوعان : نوع يرجع إلي الاحتمال ، ونوع يرجع إلي الفاعلية .

فالأول احتمال الآلام من غير تذمر ولا معارضة .

والثاني قوة في الخاطر : بحيث يجد الشخص من نفسه قدرة عـلي النهوض والإقدام علي العمل مرة ثانية بعد إنكسار أو خسارة أو نحوهما .

والذي ألاحظه أن الشق الأول من التعريف ينطبق علي الصبر ، أما الشق الثاني فإنه يتصل بقوة العزيمة ، وصلابة الإرادة ، وتجدد الأمل ، وهذا ليس صبرا بل هو من ثمرات الصبر .

٣ ــ أمـا التعريف الذي أختاره للصبر فإنني أستنبطه من القرآن الكريم .

وذلـك أن الذي يتعقب كلمة الصبر في كتاب الله يجدها ذات دلالات ، لا تـتعدى الثبات والجلد واحتمال المكاره في غير ما قلق أو خور أو جزع .

وهذه الدلالات هي :

أ ــ الصبر علي القيام بما فرض الله من عبادات وطاعات ، وهو يمثل الإذعان لأمر الله ، والمقدرة علي كبح الهوى ، والتغلب علي الإغراء بالعصيان أو التهاون .

ب ــ الصبر في حماية الدين والوطن ، وفي الكدح لكسب الرزق ، والكد في مجالي الإنتاج ، والجد في العمل .

وهو يبعث الأمل ــ، ويجدد النشاط ، ويشحذ العزم .

جـ ـ الصبر علي احتمال الأذى في الدعوة إلي الحق ، وفي الكشف عن الضلال ، وفي تبصرة الناس بالخير .

وهو المصباح الذي يهدى البشر إلي معارج الكمال .

د ـ الصبر في تقبل قضاء الله بتسليم وإذعان ، حين فقد الأعزاء ، وموت الأحباء ، ونزول الأمراض ، وحدوث النكبات .

وفي هذا الصبر تماسك وجلد ، وبعد عن الجزع الذي يضخم الكوارث ويضعف القوى ويستدعى السخط .

وهذا هو الذي يفهم من الآيات الكريمة ، سواء أكانت خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ، أم خبرا عن غيره ، أو توجيهاً للمسلمين .

قال تعالي : " فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل " فقد ثبتوا صابرين علي المكاره ، مثل نوح إذ كان قومه يضربونه حتى يغشى عليه وإبراهيم إذ ألقي في النار ، ويعقوب إذ فقد ابنه يوسف وفقد بصره ، وأيوب إذ صبر علي الضر .

وقال سبحانه : " فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادي وهو مكظوم " أي لا تكن مثل يونس إذ نادي في بطن الحوت وهو مملوء غيظاً ، لأنك لو ضجرت كضجره ابتليت ببلائه .

وقال تعالي : " واصبر علي ما يقولون ، واهجرهم هجرا جميلا " أي اصبر علي أذى الكفار ودعاواهم الباطلة ، وقد كان هذا قبل الأمر بقتالهم .

وقال سبحانه : " إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ، فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم إثماً أو كفورا "

أي فانتظر في ثبات حكم ربك المتعلق بحكمته وتعليقه الأمور بالمصالح ، وتوقيعه الأحداث بعلمه وتدبيره ، ولا تجزع من تأخر نصر الله لك علي أعدائك من أهل مكة ، ولا تطع أحداً منهم ضعفاً أو قلقاً أو ضجراً من إمهال الظفر

وقال تعالي : " وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون "

فهنا أمر بالعدل في الثأر ، وترجيح للصبر علي الأذى ، وإيثار لاحتمال الألم من ترك العقوبة علي السيئة بمثلها .

وقال تعالي : " ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا علي ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا "

وقال تعالي : " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون"

فاحتمال الخوف والجوع ونقص المال وفقدان الأنفس صبر ، والمحمود في هذه الحالات الاسترجاع ، لأنه دليل التسليم والإذعان ، ولهذا روي عن النبي صلي الله عليه وسلم : من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عقباه ، وجعل له خلفا صالحاً يرضاه .

وذكر تعالي من الأبرار والصابرين في البأساء والضراء وحيـن اليأس ، وهم الثابتون في الفقر والشدة وفي المرض والزمانة وفي ميادين الجهاد .

وقـال تعـالي : " ولنبـلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم "

وقال سبحانه : " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين " والمراد بعلمه سبحانه ما يتعلق العلم به من جهاد وصبر علي الجلاد .

وقـال تعالي : " لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن مـن الذيـن أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور "

والمـراد بالبلاء في الأموال حدوث آفات لها ، وإنفاقها فـي سـبل الخير ، والمراد بالبلاء في الأنفس القتل والأسر والجـراح والمخـاوف ، وأما الأذى الكثير فهو ما ينشأ عن طعـن أعدائهـم في الإسلام ، وصدهم إن أرادوا الإيمان ، وتسـفيههم مـن آمـنوا ، وهجاء المشركين واليهود للنبي والمسلمين واحتمال هذا كله صبر وقوة عزيمة .

٤ ـ وقد تردد الصبر في نيف وسبعين موضعاً من القرآن الكريم ، وصف الله فيها الصابرين بعدة أوصاف ، ووعدهم بدرجات عالية من الثواب والخير والتأييد ، مثل قوله تعالي : " وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا "

وقوله سبحانه : " ولتجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون "

وقوله تعالي : " أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا "

وقولــه ســبحانه : " إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب "

وقوله تعالي : " واصبروا إن الله مع الصابرين "

وقوله سبحانه : " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا "

قضـــي رسول الله ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلي التوحيد الخـــالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى ، دعوة قوية لا يخفـــت صـــوتها ، ولا ينقطع صداها ، وهم يجدون في هذه الدعوة تسفيها لعقولهم ولآلهتهم وتقويضا لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدها أو لتعويق انتشارها .

فـــلا يزداد الرسول إلا حماسة لدعوته وإصرارا عليها ، وكـــلما أمعنوا في إيذائهم له تعالي علي الأذى ، فاحتمله في ثـــبات وجـــلد وصبر ، ثم أذن الله له في الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداء الأمس أصدقاء اليوم ، وأقـــبل المشـــركون عـــلي دين الله أفواجا يحملون شعاره ، ويرفعون مناره ، ويفدونه بأغلى ما يفتدى به عزيز .

١ ــ لقـــد صبر الرسول علي جراح الألسنة ، وإنها لأليمة في مجتمع يحرص علي الثناء وحسن الأحدوثة أيما حرص ، وينفر من المذمة والهجاء أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقـــام الصـــحف والإذاعـــة ووســـائل الأعلام في المجتمع المعاصـــر ، حتى لقد كان بعض السراة يغدق علي الشعراء استدرارا لمدائحهم واتقاء لهجائهم .

وكان رسول الله في مطلع الدعوة أشد ما يكون شوقاً إلي أن يصـــدقه قومه ، ليرفعهم من الضلالة إلي الهدي ، ومن العمايـــة إلـــي الرشاد ، وكان موسوماً بينهم بالعقل والحكمة والصـــدق والأمانـــة والعفة ، لم يسمعوا عنه كذبة قط ، ولم يتناقلوا عنه نقيصة قط .

ولكـــنهم عاندوا الحق ، واستكبروا أن يتخلوا عما ألفوا عليه آباءهم ، فجرتهم الخصومة الحمقاء إلي أن يعمدوا إلي الافـــتراء ، فـــإذا هـــم يتهمون الرسول بأنه حالم يهذي بما تـــراءي له فـــي المنام ، وإذا هم يصوبون إليه تهمة باطلة يعـــلمون أنه منها براء فينسبون إليه الكذب والادعاء ، وإذا هـــم يلصـــقون بـــه ما تعارفوا عليه في شعرائهم من تخيل ومـــبالغة ومهـــارة في التأثير والاستهواء ، ثم يتمادون في السفه فيتهمونه بالجنون وهو سيد العقلاء .

قـــال تعالي : " بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون "(١)

وقـــال تعـــالي : " ويقولـــون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون " (٢)

وقـــال تعـــالي : " أم يقولـــون شاعر نتربص به ريب المنون " (٣)

أي نتـــتظر به حوادث الدهر فنتخلص منه بموت أو بحادث مهلك .

وقـــال سبحانه : " وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون "(٤)

---

(١) سورة الأنبياء ٥   (٢) الصافات ٣٦

(٣) سورة الطور ٣٠ المنون : الهلاك والموت

(٤) سورة الحجر ٦

وقد نفي عنه الخالق سبحانه أراجيفهم بقوله : " وما هو بقــول شــاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون "(١)

وبقوــله : " فذكــر ، فمـــا أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون " (٢)

وبقوــله : " ن والقــلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون " (٣)

٢ ـــ وكثيرا ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنق والطيش والســفه والاســتهانة ، يــريدون أن يصدوه عن دين الله ، ويــريدون أن يونسوه من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله ، فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذي يشق طريقه إلي النصــر ، وبالجلد الذي يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان هذا الصبر العظيم دليلا علي أن الرسول صادق مبلغ عن ربه ، وإلا ما احتمل هذا العدوان ، وهو لا يطــلب ملكا ، ولا يبتغي جاهاً ، ولا يتطلع إلي مال ، فجعل الــناس يقبــلون عــلي الإسلام فرادي وجماعات ، وجعلوا يتحملون أذى المشركين في شجاعة وثبات ، وهو يودون أن يفتدوا رسول الله مماَ يحتمل من عدوان وإعنات .

وهــذه بعــض صــور من صبر الرسول علي الإيذاء بالأعمال :

---

(١) سورة الحاقة ٤١ ـــ ٤٢ (٢) الطور ٢٩

(٣) سورة القلم ١ ـــ ٣

١ ــ قــال ابن مسعود : كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصــلي ، فقال أبو جهل ألا رجل يقوم إلي فرث جزور بني فلان ، فيلقيه علي محمد وهو ساجد .

فقام عقبة بن أبي معيط ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه علي النــبي وهو ساجد ، ولم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمســجد علي حماية النبي أو علي رمي القذر بعيدا عنه ، لأنهــم كــانوا حينئذ ضعافاً ، ولم يزل الرسول ساجدا حتى جــاءت فاطمة بنته ، فرمت القذر بعيدا عنه ، وهكذا صبر النــبي الكريم علي الأذى في سبيل دعوته ومن ثم فعلينا أن نتــبعه وأن نحرص علي تنفيذ أوامره صلي الله عليه وسلم لــنفوز فــي الدارين بالسعادة العظمي انطلاقا من قوله جل جلالــه (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[١]

هذا والله أعلم

(١) الانفال من آية ٢٤

الفهرس